

فصل

في تركة السلطان ووصف أخلاقه رحمه الله

ذكر القاضي ابن شداد أنه لما مات لم يخلف في خزائنه من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهما ناصرية، وديناراً واحداً ذهباً صورياً، ولم يخلف ملكاً لا داراً ولا عقاراً، ولا بستاناً ولا مزرعة يعني في البلد، ولا مسقفاً ولا ظاهراً مستغلاً من أنواع الاملاك.

وقال العماد في كتاب الفتح: خلف السلطان رحمه الله سبعة عشر ولداً ذكراً، وابنة صغيرة، وأبقى له مآثر أثره، ومحاسن كثيرة، ولم يخلف في خزائنه سوى دينار واحد وستة وثلاثين درهماً، فإنه كان باخراج ما يدخل من الأموال في المكرمات والغرامات مغرمًا، وكان يوجد بالمال قبل الحصول، ويقطعه عن خزائنه بالحوالات عن الوصول، وإذا عرف بوصول حمل وقع عليه بأضعافه، وخص الآحاد من ذوي الغنا في الجهاد بالآفه، ولاجبه أحداً بالرد إذا سأله، بل تطف له كأنه استمهله، فإنه يقول ما عندنا شيء الساعة ومفهومه أنه يعطى، وإن كان يبطى، وأنه يصيبه بالنوال ولا يخطى، وكان مشغوفاً في سبيل الله بالانفاق موقوفاً عزمه في الأعداء بإدناء الأجال، وفي الأولياء بإجراء الأرزاق، وما عقر في سبيل الله فرس أوجرح إلا وعوض مالكة مثله، وزاده من فضله فضله، وحسب ما وهبه من الخيل العراب والأكاديش الجياد للحاضرين معه في صف الجهاد، مدة ثلاث سنين وشهر مذ نزل الفرنج على عكا في رجب سنة خمس وثمانين إلى يوم انفصالهم بالسلم في شعبان سنة ثمان وثمانين، فكان تقديره إثني عشر ألف رأس من حصان وحجرة واكديش، وذلك غير ما أطلقه من المال في اثمان الخيل المصابة في القتال، ولم يكن له فرس يركبه إلا وهو موهوب أو موعود به، وصاحبه ملازم في طلبه، وما حضر اللقاء إلا استعار فرسا فركبه، وهجر جياده، فاذا نزل جاء

صاحبه واستعاده، فكلهم يركب خيله، ويطلب خيره، وهو يستعيرجوادا، ويستعر في الجهاد اجتهادا.

قال في البرق: وحضرت بعده عند بعض الملوك وقد قيدت إليه عراب، فقيل له: كان السلطان يضيع هذه، وما عنده لها حساب، ونسبوا جوده بها إلى السرف وعدوه من معاييه، وأعرضوا عن ذكر مفاخره ومناقبه، وبمثل ذلك استتبت له الفتوح وخلصت له طاعة كتائبه.

قال في الفتح: وكان لا يلبس إلا ما يحل لبسه، وتطيب به نفسه، كالكتان والقطن والصوف، وكسوته يخرجها في اسداء المعروف، وكانت محاضره مصونة من الخطر وخلواته مقدسة بالطهر، ومجالسه منزهة عن الهزء والهزل، ومحافله حافلة أهلة بأهل الفضل، وما سمعت له قط كلمة تسقط، ولا لفظه فظة تسخط، ويغلظ على الكافرين الفاجرين، ويلين للمؤمنين المتقين ويؤثر سماع الأحاديث بالأسانيد، ويكلم العلماء عنده في العلم الشرعي المفيد، وكان مداومة الكلام مع الفقهاء ومشاركة القضاة في القضاء أعلم منهم بالأحكام الشرعية والأسباب المرضية والأدلة المرعية، وكان من جالسه لا يعلم أنه مجالس السلطان بل يعتقد أنه مجالس أخ من الأخوان، وكان حليماً مقيلاً للعثرات، متجاوزاً عن الهفوات، تقياً نقياً، وفيها صفياء، يغضي ولا يغضب، ويبشر ولا يتقطب، مارداً سائلاً ولا صدّاً نائلاً، ولا أخجل قائلاً، ولا خيب آملاً.

قال: ومن جملة مناقبه أنه تأخر عنه في بعض سفراته الأمير أيوب بن كنان، فلما وصل سأله عن سبب تخلفه، فذكر دينا فأحضر غرماءه، وتقبل بالدين، وكان اثني عشر ألف دينار مصرية وكسرا.

قال: ولما كنا بالقدس في سنة ثمان وثمانين كتب إليه سيف الدولة بن منقذ نائبه بمصر، أن واحدا ضمن معاملة بمبلغ فاستنض منها الفي

دينار، وتسحب، وربما وصل إلى الباب، فتحيل وتمحل وكذب، فجاء من أخبر السلطان أن الرجل بالباب، فقال: قل له: إن ابن منقذ يطلبك فاجهد أن لا تقع في عينه، فعجبنا من حلمه وكرمه بعد أن قلنا قدم الرجل إلى حينه بقدمه.

قال: وما أذكره له في أول سفرتي معه إلى مصر سنة اثنتين وسبعين، أنه حوسب صاحب ديوانه عما تولاه في زمانه ، فكانت سياقة الحساب عليه سبعين ألف دينار باقية عليه، فمأطلبها ولا ذكرها ، وأراه أنه ما عرفها، على أن صاحب الديوان ما أنكرها، وكان يرضى من الأعمال بما تحمل صفوا عفوا، وتحصل حلوا ، وكله يخرج في الجود والجهاد، ثم لم يرض له بالعطلة، فولاه ديوان جيشه.

قال: ولما كنا بظاهر حران عم بصدقاته الفقراء والمساكين، وكتب إلى نوابه في الولايات بإخراج الصدقات وقال لي: اكتب إلى الصفي بن القابض بدمشق أن يتصدق بخمسة آلاف دينار صورية، فقلت: إنما الذهب الذي عنده مصري، فقال: فيتصدق بخمسة آلاف دينار مصرية ، واشفق من صرف المصري بالصوري فيكون حراما، ويرتكب في كسب الأجر آثاما، فسمح ومنح، وتاجر الله وربح، ولما عزم على الرحيل من حران أفاض بها الفضل وبث الاحسان، وقال لي يوم الرحيل: انظر كم بقي بالباب من الوافدين أبناء السبيل وهذه ثلاثمائة دينار أقسمها عليهم بالقلم على أقدارهم، وكانوا عدة يسيرة لم تبلغ عشرة، فعينت لكل اسم قسما فبلغ أربعائة دينار، فأعلمته وقلت أنقص من كل اسم ربعا، فقال اجر ما جرى القلم به.

قال: وكان رحمه الله إذا أطلق لعاف عارفة، وقلت له: هذه ماتكفيه ردّها مضاعفة.

قال: وكان يغضب للكبائر، ولا يغضب عن الصغائر، ويرشد إلى الهدى، ويهدي إلى الرشاد، ويسدد الأمر، ويأمر بالسداد، فكل مما ليكه وخواصه بل أمراؤه وأجناده أعف من الزهاد والعباد.

قال: ورأى لي يوماً دواة محلاة بالفضة، فأنكرها، فقلت له: إن الشيخ أبا محمد والد أبي المعالي قد ذكر وجهها في جوازها، ثم لم أكتب بها عنده بعدها.

وكان محافظاً على الصلوات الخمس في أوائل أوقاتها، مواظباً على أداء مفروضاتها ومسنوناتها، فما رأته صلى إلا في جماعة، ولم يؤخر له صلاة من ساعة إلى ساعة، وكان له امام راتب ملازم مواظب، فان غاب يوماً صلى به من حضره من أهل العلم، إذا عرفه متقياً متجنباً للآثم، وكان يأخذ بالشرع ويعطي به، ولم يكن إلى المنجم مصغياً، ولم يزل لقوله ملغياً، ولا يتعيف ولا يتطير، ولا يتعين ولا يتحير، بل إذا عزم توكل على الله، فلا يفضل يوماً على يوم، ولا زماناً على زمان إلا بتفضيل الشرع، وما زال ناصرًا للتوحيد، وقامعاً جميع أهل البدع بالتبديد، شافعي المذهب أصولاً وفروعاً، معتقلاً له معقولاً ومسموعاً، يدني أهل التنزيه، ويقصي أهل التشبيه، ويدعم استفادة فقه الفقيه، واستزادة نباهة النبيه، ووجاهة الوجيه، فالعالمون في عدله، والعاملون في فضله والبلاد في أمنه، والعباد في منه.

فصل

قال القاضي ابن شداد: كان مولد السلطان رحمه الله في شهر سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة بقلعة تكريت، وكان والده أيوب بن شادي واليا بها، وكان كريما، أريحيا حليها، حسن الأخلاق مولده بدوين، ثم اتفق له الانتقال من تكريت إلى الموصل، وانتقل ولده المذكور معه، وأقام بها إلى أن ترعرع، وكان والده محترما مقدما، هو وأخوه أسد الدين شيركوه عند أتاك زنكي، واتفق لوالده الانتقال إلى الشام وأعطى بعلبك وأقام بها مدة ومعه ولده المذكور، فأقام في خدمة والده يتربى تحت حجره، ويرتضع ثدي محاسن أخلاقه حتى بدت منه أمارات السعادة، ولاحت عليه لوائح التقدم والسيادة، وقدمه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله، وعوّل عليه، ونظر إليه وقربه وخصصه، ولم يزل كلما تقدم قداما يبد منه أسباب تقتضي تقديمه إلى ما هو أعلى منه، حتى اتفق لعمه أسد الدين شيركوه الحركة إلى مصر، والنهوض إليها وقد مضى ذلك.

ثم قال:

ذكر ماشاهدناه من مواظبته على القواعد الدينية وملاحظته للأمر الشرعية

مما ورد في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله الا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، والحج إلى بيت الله الحرام» فكان رحمه الله حسن العقيدة، كثير الذكر لله تعالى، قد أخذ عقيدته عن الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء، ويتفهم من ذلك ما يحتاج إلى تفهمه، بحيث كان إذا جرى الكلام بين يديه يقول فيه قولا

حسنا، وإن لم يكن بعبارة الفقهاء، فتحصل من ذلك سلامة عقيدته عن كدر التشبيه والتعطيل، جارية على نمط الاستقامة، وكان قد جمع له الشيخ الامام قطب الدين النيسابوري رحمه الله عقيدة تجمع جميع ما يحتاج إليه في هذا الباب، وكان من شدة حرصه عليها يعلمها الصغار من أولاده، حتى ترسخ في أذهانهم من الصغر، ورأيته وهو يأخذها عليهم، وهم يقرؤونها من حفظهم عليه.

وأما الصلاة فإنه كان شديد المواظبة عليها بالجماعة، وكان يواظب على السنن والرواتب، ولقد رأيته يصليها إن استيقظ بوقت الليل وإلا أتى بها قبل صلاة الصبح، وما كان يترك الصلاة مادام عقله عليه، ولقد رأيته يصلي في مرضه الذي مات فيه قائما، وماترك الصلاة إلا في الايام الثلاثة التي تغيب فيها ذهنه، وكان إذا أدركته الصلاة وهوسائر نزل وصلى.

وأما الزكاة فانه مات رضي الله عنه ولم يحفظ ماوجبت عليه به الزكاة، وأما صدقة النفل فانها استنفدت جميع ما ملكه من الأموال.

وأما صوم رمضان فإنه كان عليه فيه فوائت بسبب أمراض تواترت عليه في رمضانات متعددة، وكان القاضي الفاضل قدتولى ثبت تلك الأيام، وشرع رحمه الله في قضاء فوائت ذلك في القدس الشريف في السنة التي توفي فيها، وواظب على الصوم مقدارا زائدا على شهر فإنه كان عليه فوائت رمضانين، شغلته الأمراض وملازمة الجهاد عن قضائها، وكان الصوم لا يوافق مزاجه فألمه الله الصوم لقضاء الفوائت، فكان يصوم وأنا أثبت الأيام التي يصومها ، فان القاضي كان غائبا، والطبيب يلومه وهو لا يسمع ويقول: ما أعلم ما يكون ، فكأنه كان ملها براءة ذمته، ولم يزل حتى قضى ما عليه رحمه الله.

وأما الحج فإنه لم يزل عازماً عليه وناوياً له لاسيما في العام الذي توفي فيه، فإنه صمم العزم عليه وأمر بالتأهب، وعملت الزوادة ولم يبق إلا المسير، فاعتاق عن ذلك بسبب ضيق الوقت ، وفراغ اليد عما يليق بأمثاله، فأخره إلى العام المقبل، ففضى الله ما قضى.

قال: وهذا شيء اشترك في العلم به الخاص والعام، وكان رحمه الله يحب سماع القرآن العظيم حتى أنه كان يستخير إمامه، ويشترط عليه أن يكون عالماً بعلوم القرآن العظيم متقناً لحفظه، وكان يستقرئ من يحضره في الليل، وهو في برجه الحزين والثلاثة والأربعة وهو يسمع، وكان يستقرئ في مجلسه العام من جرت عادته بذلك الآية والعشرين والزائد على ذلك، ولقد اجتاز على صغير بين يدي أبيه وهو يقرأ القرآن، فاستحسن قراءته فقرّبه وجعل له حظاً من خاص طعامه، ووقف عليه، وعلى أبيه جزءاً من مزرعة، وكان رحمه الله خاشع القلب رقيق الدمعة إذا سمع القرآن العزيز يخشع قلبه وتدمع عينه في معظم أوقاته، وكان شديد الرغبة في سماع الحديث، ومتى سمع عن شيخ ذي رواية عالية وسماع كثير، فإن كان ممن يحضر عنده استحضره وسمع عليه، وسمع من يحضره في ذلك المكان من أولاده ومماليكه والمختصين به، وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث اجلالاً له، وإن كان الشيخ ممن لا يطرق أبواب السلاطين ويتحامى عن الحضور في مجالسهم سعى إليه وسمع عليه، تردد إلى الحافظ السلفي بالاسكندرية وروى عنه أحاديث كثيرة، وكان يجب أن يقرأ الحديث بنفسه، فكان يستحضرني في خلوته ويحضر شيئاً من كتب الحديث، ويقرأ هو فإذا مر بحديث فيه عبرة رق قلبه ودمعت عينه، وكان كثير التعظيم لشعائر الدين قائلاً بيعت الأجسام ونشورها، ومجازاة المحسن بالجنة والمسيء بالنار، مصدقاً بجميع ماوردت به الشرائع منسرحاً بذلك صدره، مبغضاً للفلاسفة والمعطلّة والدهرية، ومن يعاند الشريعة المطهرة، ولقد أمر ولده الظاهر صاحب حلب بقتل شاب كان نشأ يقول له السهروردي، قيل عنه أنه كان معانداً

للشرائع مبطلا، وكان قد قبض عليه ولده المذكور لما بلغه من خبره، وعرف السلطان به فأمر بقتله وصلبه أياما فقتله، وكان حسن الظن بالله كثير الاعتماد عليه عظيم الانابة إليه، ولقد شاهدت من آثار ذلك ما أحكيه، فحكى التجاهه إلى الله تعالى عند خوفه من قصد الفرنج بيت المقدس، وامتناع أصحابه من دخوله للحصر، فصلى ودعا فكفي ذلك، وقد تقدم ذكره.

ثم قال: وكان رحمه الله عادلا رؤوفا رحيمًا ناصرًا للضعيف على القوي، وكان يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء، ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كل أحد من كبير وصغير، وعجوز هرمة وشيخ كبير، وكان يفعل ذلك سفرًا وحضرًا، على أنه كان في جميع زمانه قابلا لما يعرض عليه من القصص، كاشفا لما ينهى إليه من المظالم، وكان يجمع القصص في كل يوم، ثم يجلس مع الكاتب ساعة في الليل أو في النهار، ويوقع على كل قصة بما يطلق الله على قلبه، وما استغاث إليه أحد إلا وقف وسمع ظلامته، وأخذ قصته، وكشف قضيته، ولقد رأيت وقد استغاث إليه انسان من أهل دمشق، يقال له ابن زهير على تقي الدين ابن أخيه، وأنفذ إليه ليحضره في مجلس الحكم، فما خلصه إلا أن أشهد عليه شاهدين أنه وكل القاضي أمين الدين أبا القاسم قاضي حماه في المخاصمة، فأقاما الشهادة عندي في مجلسه، فأمرت أبا القاسم بمساواة الخصم فساواه، وكان من خواص جلساء السلطان، ثم جرت المحاكمة بينهما واتجهت اليمين على تقي الدين، وكان تقي الدين من أعز الناس عليه، وأعظمهم عنده، ولم يجابه في الحق.

قال: وكنت يوما في مجلس الحكم بالقدس الشريف إذ دخل عليّ شيخ حسن تاجر معروف يسمى عمر الخلاطي، ومعه كتاب حكومي سأل فتحه، وقال: خصمي السلطان، وهذا بساط الشرع، وقد سمعنا

انك لانتحاي، فقلت : وفي أي قضية هو خصمك، فقال: إن سنقر الخلاطي كان مملوكي، ولم يزل على ملكي إلى أن مات، وكان في يده أموال عظيمة كلها لي، ومات عنها، واستولى عليها السلطان وأنا مطالبه، فقلت: يا شيخ وما الذي أقعدك إلى هذه الغاية فقال: الحقوق لا تبطل بالتأخير، وهذا الكتاب الحكمي ينطق بأنه قد اشتراه من فلان التاجر بأرجيش في اليوم الفلاني من شهر كذا من سنة كذا، وأنه لم يزل في ملكه إلى أن شذ عن يده في سنة كذا، وما عرف شهود هذا الكتاب خروجه عن ملكه بوجه وتم الشرط إلى آخره، فتعجبت من هذه القصة، وأعلمت السلطان بذلك، فأحضره واستدناه حتى جلس بين يدي، وكنت إلى جانبه ثم انفرك من طراحته حتى ساواه رحمه الله تعالى، ثم ادعى الرجل وفتح كتابه وقرىء تاريخه، فقال السلطان: إن لي من يشهد أن سنقر هذا كان في ملكي وفي يدي بمصر، وأني اشتريته مع ثمانية أنفس في تاريخ متقدم على هذا التاريخ بسنة وأنه لم يزل في يدي وملك لي أن اعتقته، ثم استحضر جماعة من أعيان الأمراء المجاهدين فشهدوا بذلك وحكوا القضية كما ذكرها، وذكروا التاريخ كما ادّعاه، فأبلس الرجل فقلت له: يامولانا هذا الرجل ما فعل ذلك الا طلبا لمراحم السلطان، وقد حضر بين يدي المولى وما يحسن أن يرجع خائب القصد، فقال: هذا باب آخر، وتقدّم له بخلعة ونفقة بالغة.

قال: فانظر إلى ما في طي هذه القضية من المعاني الغريبة العجيبة من التواضع والانقياد إلى الحق وإرغام النفس، والكرم في موضع المؤاخذة مع القدرة التامة رحمة الله عليه.

قال: وكرمه كان أظهر من أن يسطر، كان رحمه الله يهب الأقاليم وفتح أمد فطلبها منه ابن قرا أرسلان فأعطاه إياها، ورأيته وقد اجتمع عنده وفود بالقدس ولم يكن في الخزانة مانعطيهم، فباع قرية من بيت المال وفضضنا ثمنها عليهم ولم يفضل منه درهم واحد، وكان يعطي في وقت

الضائقة كما يعطى في حال السعة، وكان نواب خزائنه يخفون عنه شيئا من المال حذر أن يفجأهم لعلمهم أنه متى علم به أخرجه، وسمعتة يوما يقول: يمكن في الناس من ينظر إلى المال كما ينظر إلى التراب، فكأنه أراد بذلك نفسه، وكان يعطي فوق ما يؤمل الطالب، وما سمعتة يقول: أعطينا لفلان، وكان يعطي الكثير، ويبسط وجهه للمعطى بسط من لم يعط شيئا، وكان الناس يستزيدونه في كل وقت، وما سمعتة قط يقول: قد زدت مرارا فكم أزيد؟ وأكثر الرسائل في ذلك كان يكون على لساني ويدي وكنت أخجل من كثرة ما يطلبون، ولا أخجل منه لعلمي بعدم مؤاخذته بذلك، وما خدمه قط أحد إلا وأغناه عن سؤال غيره.

وأما تعدد عطاياه فقال: حصرنا عدد ما وهب من الخيل بمرج عكا لا غير فكان عشرة آلاف رأس، ومن شاهد مواهبه يستقل هذا القدر، اللهم إنك أهدمت الكرم، وأنت أكرم الأكرمين فتكرم عليه برحمتك ورضوانك يا أرحم الراحمين.

قال: وكان رحمه الله من عظماء الشجعان، قوي النفس شديد البأس، عظيم الثبات لا يهوله أمر، ولقد رأيت مرابطا في مقابلة عدة عظيمة من الفرنج، ونجدهم تتواصل، وعساكرهم تتواتر، وهو لا يزداد إلا قوة نفس، وصبرا، ولقد وصل في ليلة واحدة منهم نيف وسبعون مركبا على عكا، وأنا أعدها من بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس، وهو لا يزداد إلا قوة نفس، ولقد كان يعطي دستورا في أوائل الشتاء، ويبقى في شردمة يسيرة في مقابلة عدتهم الكثيرة، ولقد سألت باليان بن بارزان، وهو من كبار ملوك الساحل، وهو جالس بين يديه يوم انعقاد الصلح عن عدتهم الكثيرة، فقال الترجمان عنه أنه يقول كنت أنا وصاحب صيدا وكان أيضا من ملوكهم وعقلائهم قاصدين عسكرنا من صور، فلما أشرفنا عليه تحاورنا فحزره هو بخمسمائة ألف، وحزرتة أنا بستمائة ألف، أو قال عكس ذلك، فقلت: كم هلك منهم؟ فقال: أما بالقتل فقريب

مائة ألف، وأما بالموت والغرق فلا يعلم، ومارجع من هذا العالم إلا الأقل.

قال: وكان لابد له من أن يطوف حول العدو كل يوم مرة أو مرتين إذا كنا قريبا منهم، وكان إذا اشتد الحرب يطوف بين الصفين ومعه صبي واحد، وعلى يده جنيب، ويحرق العساكر من الميمنة إلى الميسرة يرتب الأطلاب ويأمرهم بالتقدم والوقوف في مواضع يراها، وكان يشارف العدو ويجاوره، ولقد قرىء عليه جزء من الحديث بين الصفين، وذلك أني قلت له قد سمع الحديث في جميع المواطن الشريفة، وما نقل أنه سمع بين الصفين، فإن رأى المولى أن يؤثر عنه ذلك كان حسنا، فأذن في ذلك فأحضر جزءا هناك من له به سماع، فقرأ عليه ونحن على ظهور الدواب بين الصفين يمشي تارة ويقف أخرى، وما رأيت استكثر العدو أصلا، ولا استعظم أمرهم قط، وكان مع ذلك في حال الفكر والتدبير يذكر بين يديه الأقسام كلها، ويرتب على كل قسم مقتضاه من غير حدة ولا غضب يعتريه، ولقد انهزم المسلمون في يوم المصاف الأكبر بمرج عكا حتى القلب ورجاله، ووقع الكوس والعلم وهوثابت القدم في نفر يسير، وقد انحاز إلى الجبل يجمع الناس ويردهم ويحجلهم حتى يرجعوا، ولم يزل كذلك حتى عكس المسلمون على العدو في ذلك اليوم، وقتل منهم زهاء سبعة آلاف مابين راجل وفارس، ولم يزل مصابرا لهم وهم في العدة الوافرة إلى أن ظهر له ضعف المسلمين فصالح وهو مسؤول من جانبهم، فإن الضعف والهلاك كان فيهم أكثر، ولكنهم كانوا يتوقعون النجدة، ونحن لا نتوقعها، وكانت المصلحة في الصلح.

وكان رحمه الله يمرض ويصح وتعتريه أحوال مهولة وهو صابر مرابط وتترأى الناران ونسمع منهم صوت الناقوس، ويسمعون منا صوت الأذان إلى أن قضى الأمر.

قال: وكان رحمه الله شديد المواظبة على الجهاد عظيم الاهتمام به ولو حلف حالف أنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد دينارا ولا درهما إلا في الجهاد، وفي الأرفاد، لصدق وبر في يمينه، ولقد كان الجهاد وحبه والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيما، بحيث ما كان له حديث إلا فيه ولا نظرا إلا في آتته، ولا اهتمام إلا برجاله، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه، ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر ملاذه، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح يمنة ويسرة، ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلة ريحة على مرج عكا، فلو لم يكن في البرج لقتلته ولا يزيده ذلك إلا رغبة ومصابرة واهتماما.

قلت: وشواهد ما ذكر القاضي من ذلك كثيرة، وقد سبقت مفرقة في وقعاته رحمه الله، منها ما قاساه على حصار كوكب من الأمطار والأوحال، وقال الرشيد بن النابلسي من قصيدة له:

ما أهبج الدين والسديا بيا لكها الصـ

ـديق يوسف لا لذت به الغير

ملك تساوى جهاد وتمـ

ـموز لديه وضاهى ناجر أصفر

فليس يشنيه حران تـوقـد عن

رضى الآله ولا إن اغدق المطر

ولا ينهنهـ عما يكـابـده

ضجّ أعيذ معاليه ولا ضجر

ولا يرى الروح إلا ظهر سلهبة

في بطن معركة مركوبها وعر

صبر جميل كطعم الشهيد في فمه

وعند كل مليك طعمه الصبر

قال القاضي: وكان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه يحثه على

الجهاد، أويذكر شيئا من أخبار الجهاد، ولقد ألف له كتب عدّة في الجهاد، وأنا ممن جمع له فيه كتابا جمعت به آدابه، وكل آية وردت نيه، وكل حديث روي فيه، وشرحت غريبها، وكان رحمه الله كثيرا ما يطالعه حتى أخذه منه ولده الأفضل.

قال: ولأحكين عنه ماسمعت منه في ذلك، وذلك أنه كان قد أخذ كوكب في ذي القعدة سنة أربع وثمانين، وأعطى العساكر دستورا وأخذ عسكر مصر في العود إلى مصر، وكان مقدمه أخاه العادل، فسار معه ليودعه، ويحظى بصلاة العيد في القدس ففعل ووقع له أنه يمضي معهم إلى عسقلان ويودعهم، ثم يعود على طريق الساحل ويتفقد البلاد الساحلية إلى عكا، ويرتب أحوالها، فأشاروا عليه أن لا يفعل فإن العساكر إذا فارقتنا تبقى في عدة يسيرة، والفرنج كلهم بصور، وهذه مخاطرة عظيمة، فلم يلتفت وودع أخاه والعسكر بعسقلان، ثم سرنا على الساحل طالبي عكا، وكان الزمان شتاء عظيما، والبحر هائجا هيجانا عظيما، وموجه كالجبال، كما قال الله تعالى، وكنت حديث عهد برؤية البحر، فعظم أمر البحر عندي حتى خيل لي أنني لو قال لي قادن لو جزت في البحر ميلا واحدا ملكتك الدنيا، لما كنت أفعل، واستخففت رأي من يركب البحر رجاء كسب دينار أو درهم واستخففت رأي من لا يقبل شهادة راكب البحر، هذا كله خطر لي لعظم الهول الذي شاهدته من حركة البحر وتموجه، فبينما أنا في ذلك اذ التفت إليّ وقال: في نفسي انه متى يسر الله تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد وأوصيت وودعت وركبت هذا البحر إلى جزائرهم أتبعهم فيها حتى لا أبقى على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت، فعظم وقع هذا الكلام عندي حيث ناقض ما كان يخطر لي، وقلت له ليس في الأرض أشجع نفسا من المولى، ولا أقوى نية منه في نصره دين الله، وحكيت له ما خطر لي، ثم قلت ما هذه إلا نية جميلة، ولكن المولى يسير في البحر العساكر، وهو سور الاسلام ولا ينبغي أن يخاطر بنفسه، فقال:

أنا أستفتيك ما أشرف الميتات؟ فقلت: الموت في سبيل الله، فقال: غاية ما في الباب أن أموت أشرف الميتات، قال: انظر الى هذه الطوية ما أطهرها، وإلى هذه النفس ما أشجعها وأجسرها، اللهم إنك تعلم أنه بذل جهده في نصرة دينك رجاء رحمتك فارحمه.

قال: وأما صبره فلقد رأيتَه بمرج عكا وهو على غاية من مرض اعتراه بسبب كثرة دماميل، كانت ظهرت عليه من وسطه إلى ركبته بحيث لا يستطيع الجلوس، وإنما يكون متكئا على جانبه إذا كان في الخيمة، وامتنع من مد الطعام بين يديه لعجزه عن الجلوس، وكان يأمر أن يفرق على الناس، وكان مع ذلك كله يركب من بكرة النهار إلى صلاة الظهر يطوف على الأطلاب، ومن صلاة العصر إلى صلاة المغرب وهو صابر على شدة الألم وقوة ضربان الدماميل، وكان يعجب من ذلك فيقول رحمه الله: إذا ركبت يزول عني ألمها حتى أنزل، وهذه عناية ربانية، ولقد مرض ونحن على الخروبة، وكان قد تأخر عن تل الحجل بسبب مرضه، فبلغ الفرنج ذلك فخرجوا طمعا في أن ينالوا من المسلمين شيئا بسبب مرضه، وهي نوبة النهر فخرجوا في مرحلة إلى الآبار التي تحت التل، ثم رحل العدو في اليوم التالي يطلبنا، فركب رحمه الله على مضض ورتب العساكر للحرب وجعل أولاده في القلب، ونزل هو وراء القوم بطلبه، وكلما سار إلى العدو يطلب رأس النهر سار هو يستدير إلى ورائهم، حتى يقطع بينهم وبين خيامهم، وهو رحمه الله يسير ساعة ثم ينزل يستريح ويظلل بمنديل على رأسه من شدة وقع الشمس، ولا ينصب له خيمة حتى لا يرى العدو ضعفا، ولم يزل كذلك حتى نزل العدو برأس النهر ونزل هو على تل قبالتهم مطل عليهم إلى أن دخل الليل، ثم أمر العساكر أن تعود إلى نخل المصابرة وأن يبيتوا تحت السلاح، وتأخر هو إلى قمة الجبل، وضربت له خيمة لطيفة، وبات تلك الليلة أجمع أنا والطبيب نمرضه ونشأغله، وهو ينام تارة ويستيقظ تارة أخرى حتى لاح الصباح، ثم ضرب البوق وركب رحمه الله، وركبت العساكر، وأحدثت بالعدو

ورحل العدو عائداً إلى خيمه من الجانب الغربي للنهر، وضايقه المسلمون مضايقة شديدة، وفي ذلك اليوم قدّم أولاده بين يديه احتساباً: الأفضل والظاهر، والظافر، وجميع من حضره منهم، ولم يزل يبعث من عنده حتى لم يبق عنده إلا أنا وطبيب وعارض الجيش والغلمان بأيديهم الأعلام والبيارق لاغير فيظن الرائي لها عن بعد أن تحتها خلقاً كثيراً، وليس تحتها إلا واحد يعد بخلق عظيم رحمه الله، وبقي في موضعه والعساكر على ظهور الخيل قبالة العدو إلى آخر النهار، ثم أمرهم أن يبيتوا على مثل مباتوا عليه بارحتهم، وبتنا على مابتنا عليه إلى الصباح، وعاد العسكر إلى ماكان عليه بالأمس من مضايقة العدو.

قال: ولقد رأيته ليلة على صفد وهو يحاصرها، وقال: لانام الليلة حتى ينصب لنا خمسة مجانيق، ورتب لكل منجنيق قوما يتولون نصبه وكنا طول الليل في خدمته في ألد فكاهة وأرغد عيشة والرسل تتواصل مخبرة بأنه نصب من المنجنيق الفلاني كذا، ومن الآخر كذا حتى أتى الصباح وقد فرغ منها، وكانت من أطول الليالي وأشدّها برداً ومطراً.

قال: ولقد رأيته وقد جاءه خبر وفاة ولد له بالغ أو مراهق يسمى اسماعيل، فوقف على الكتاب، ولم يعرف أحد ولم نعرف حتى سمعناه من غيره، ولم يظهر عليه شيء من ذلك سوى أنه لما قرأ الكتاب دمعت عينه رحمه الله.

قال: ولقد رأيته وقد وصله خبر وفاة تقي الدين، ونحن في مقابلة الفرنج جريدة على الرملة، وفي كل ليلة تقع الصيحة فتقلع الخيام، ويقف الناس على ظهر إلى الصباح والعدو ييازور بيننا وبينه شوط فرس لاغيرها، فأحضر العادل وابن جندر وابن المقدم وابن الداية سابق الدين، وأمر بالناس فأبعدوا عن الخيمة بحيث لم يبق حولها أحد عن غلوة سهم، ثم أظهر الكتاب ووقف عليه وبكى بكاء شديداً حتى أبكنا

من غير أن نعلم السبب، ثم قال رحمه الله والعبرة تخنقه: توفي تقي الدين، فاشتد بكأؤه وبكاء الجماعة، ثم عدت إلى نفسي فقلت: أستغفر الله من هذه الحالة وانظروا أين أنتم، وأعرضوا عما سواه، فقال رحمه الله: نعم أستغفر الله، وأخذ يكررها ثم قال: لا يعلم هذا أحد.

قال: وكان رحمه الله شديد الشوق والشغف بأولاده الصغار، وهو صابر على مفارقتهم راض ببعدهم عنه، وكان صابرا على مر العيش وخشونته مع القدرة التامة على غير ذلك احتسابا لله تعالى، اللهم إنه ترك ذلك كله ابتغاء لمرضاتك فارض عنه.

قال: ولقد كان رحمه الله حليما متجاوزا قليل الغضب، ولقد كنت بخدمته بمرج عيون قبل خروج الفرنج إلى عكا، يسر الله فتحها، وكان من عادته أنه يركب في وقت الركوب، ثم ينزل فيمد الطعام ويأكل مع الناس، ثم ينهض إلى خيمة خاصة له ينام فيها ثم يستيقظ من منامه ويصلي ويجلس خلوة، وأنا في خدمته يقرأ شيئا من الحديث أو شيئا من الفقه ولقد قرأ عليّ كتابا مختصرا لسلم الرازي يشتمل على الأرباع الأربعة من الفقه، فنزل يوما على عادته ومدّ الطعام بين يديه ثم عزم على النهوض فقبل له: إن وقت الصلاة قد قرب، فعاد إلى الجلوس وقال: نصلي وننام، ثم جلس يتحدث حديث متضجر وقد أخلى المكان إلا عن لزم، فتقدم إليه مملوك كبير محترم عنده وعرض عليه قصة لبعض المجاهدين، فقال له: أنا الآن ضجر آخرها ساعة، فلم يفعل وقدمها إلى قريب من وجهه الكريم بيده وفتحها بحيث يقرؤها، فوقف على الاسم المكتوب في رأسها فعرفه وقال: رجل مستحق، فقال يوقع له المولى فقال: ليست الدواة حاضرة الآن، وكان رحمه الله جالسا في باب الخركاة بحيث لا يستطيع أحد الدخول إليها والدواة في صدر الخركاه والخركاة كبيرة، فقال له المخاطب هاهي الدواة في صدر الخركاه، قال القاضي: فليس لهذا معنى إلا أمره إياه بإحضار الدواة لاغير، فالتفت رحمه الله فرأى

الدواة، فقال: والله صدق، ثم استند على يده اليسرى، ومد يده اليمنى، واحضرها، ووقع له، فقلت: قال الله تعالى في حق نبيه صلى الله عليه وسلم: (وانك لعلى خلق عظيم) (١٣٨) وما أرى المولى إلا قد شاركه في هذا الخلق، فقال: ماضرنا شيء قضينا حاجته، وحصل الثواب، قال القاضي: ولو وقعت هذه الواقعة لأحاد الناس لقام وقعد، ومن الذي يقدر أن يخاطب أحدا هو تحت حكمه بمثل ذلك، وهذا غاية الاحسان والحلم، (والله لا يضيع أجر المحسنين) (١٣٩).

قال: ولقد كانت طراحته تداس عند التزاحم عليه لعرض القصص وهو لا يتأثر لذلك، ولقد نفرت يوما بغلتي من الجمال وأنا راكب في خدمته، فزحمت وركه حتى آلمته وهو يتبسم، ولقد دخلت بين يديه في يوم ريح مطير إلى القدس، كثير الوحل، فنضحت البغلة عليه من الطين حتى أهلكت جميع ما كان عليه، وهو يتبسم، وأردت التأخر عنه بسبب ذلك فما تركني، ولقد كان يسمع من المستغيثين إليه والمتظلمين أغلظ ما يمكن أن يسمع ويلقى ذلك بالبشر و القبول.

ثم قال القاضي: وهذه حكاية ينذر أن يسطر مثلها، فذكر ماتقدم من امتناع عسكره من الهجوم على ملك الانكليز، وهو في جمع يسير من اصحابه بعد أن أطافوا بهم، وواجه الجناح السلطان بذلك الكلام الخشن، فرجع السلطان مغضبا وظن أنه ربما صلب وقتل في ذلك اليوم، فنزل بيازور، وقد وصله من دمشق فاكهة كثيرة فطلب الأمراء ليأكلوا، فحضروا فرأوا من بشره وانبساطه ما أحدث لهم الطمانينة والأمن والسور.

قال: وكان رحمه الله كثير المروءة، ندي الوجه كثير الحياء منبسطا لمن يرد عليه من الضيوف، يكرم الوافد عليه، وإن كان كافرا، ولقد وفد عليه البرنس صاحب أنطاكية فما أحس به إلا وهو واقف على باب خيمته،

بعد وقوع الصلح في شوال عند منصرفه من القدس الى دمشق، وقد تقدم ذلك وعرض له في الطريق، وطلب منه شيئا، فأعطاه العمق وهي بلاد كان أخذها منه عام فتح الساحل سنة أربع وثمانين، ولقد رأيتُه وقد دخل إليه صاحب صيدا فاحترمه واکرمه وأكل معه، وعرض عليه الاسلام وذكر له طرفا من محاسنه وحثه عليه، وكان يكرم من يرد عليه

من المشايخ وأرباب العلم والفضل وذوي الأقدار، وكان يوصينا لثلا نغفل عمن يجتاز بالخيم من المشايخ المعروفين ، حتى نحضرهم عنده وينالهم من احسانه، ولقد مر بنا سنة أربع وثمانين رجل جمع بين العلم والتصوف وكان من ذوي الأقدار، وكان أبوه صاحب توريز، فأعرض هو عن فن أبيه واشتغل بالعلم والعمل، وحج ووصل زائرا لبيت الله المقدس، ولما قضى لباتته منه ورأى اثار السلطان فيه، وقع له زيارته فوصل إلينا إلى العسكر، فلقيته ورحبت به، وعرفت السلطان وصوله فاستحضره وشكره عن الاسلام وحثه على الخير، وانصرف وبات عندي في الخيمة، فلما صلينا الصبح أخذ يوذعني، فقبحت له المسير بدون وداع السلطان فلم يلتفت ولم يلو على ذلك وقال: قضيت حاجتي منه ولاغرض لي فيما عدا رؤيته وزيارته، ثم انصرف من ساعته ومضى على ذلك ليال، فسأل السلطان عنه فأخبرته بفعله، فظهر عليه اثار العتب كيف لم اخبره برواحه، وقال: كيف يطرقنا مثل هذا الرجل وينصرف عنا من غير احسان يمسه منا، وشدد النكير عليّ في ذلك، فما وجدت بدا من أن أكتب كتابا إلى محيي الدين قاضي دمشق، كلفته فيه السؤال عن حال الرجل، وايصال رقعة كتبتها اليه طي كتابي أخبرته فيها بانكار السلطان رواحه من غير اجتماع به، وحسنت له فيها العود وكان بيني وبينه صداقة تقتضي مثل ذلك فعاد واجتمع بالسلطان، فرحب به وانبسط معه واستوحش له، وأمسه أياما ثم خلع عليه خلعة حسنة، وأعطاه مركوبا لاثقا وثيابا كثيرة ليحملها إلى أهل بيته وأتباعه وجيرانه، ونفقة يرتفق بها، وانصرف عنه وهو أشكر الناس له وأخلصهم دعاء لأيامه.

قال: ولقد رأيت رحمته الله وقد مثل بين يديه أسير فرنجي ، وقد هابه بحيث ظهر عليه أمارات الخوف والجزع ، فقال له الترجمان : من أي شيء تخاف فأجرتني الله على لسانه أن قال: كنت أخاف قبل أن أرى هذا الوجه، فبعد رؤيتي له وحضوري بين يديه أيقنت أنني ما أرى إلا خيرا فمنّ عليه وأطلقه، وورق له.

قال: وكنت راكبا في خدمته في بعض الأيام قبالة الفرنج ووصل بعض اليزكية ومعه امرأة شديدة التحرق، كثيرة البكاء متواترة الدق على صدرها، فذكر قصة أم الرضيع الذي سرق وقد مضت.

قال: وكان رحمه الله لا يرى الاساءة إلى من صحبه وإن أفرط في الجناية، ولقد بدل في خزانته كيسان من الذهب المصري بكيسين من الفلوس فما عمل بالنواب شيئا سوى أنه صرفهم من عملهم لاغير، وكان رحمه الله حسن العشرة لطيف الأخلاق طيب الفكاهة، حافظا لأنساب العرب ووقائعهم، عارفا بسيرهم وأحوالهم ، حافظا لأنساب خيلهم، عالما بعجائب الدنيا ونوادرها، بحيث كان يستفيد محاضره منه ما لا يسمعه من غيره، وكان يسأل الواحد مناعن مرضه ومداواته ومطعمه ومشربه، وتقلبات أحواله ، وكان طاهر المجلس لا يذكر بين يديه أحد إلا بالخير، وطاهر السمع فلا يجب أن يسمع عن أحد إلا بالخير، وطاهر اللسان فما رأيت أولع بشتم قط، وطاهر القلم فما كتب بقلمه أذى لمسلم قط، وكان حسن العهد والوفاء فما أحضر بين يديه يتيم إلا وترحم على خلفه، وجبر قلبه وأعطاه خبز مخلفه، إن كان له من أهله كبير يعتمد عليه وسلمه إليه، وإلا أبقى له من الخبز ما يكفي حاجته، وسلمه إلى من يكفله ويعتني بتربيته، وكان ما يرى شيئا إلا ويرق له ويعطيه ويحسن إليه، ولم يزل على هذه الأخلاق إلى أن توفاه الله عز وجل إلى مقر رحمته، ومحل رضوانه.

قلت: ولجعفر بن شمس الخلافة من قصيدة رثاه بها:
ألست ترى كيف انبرى الخطيب ثائرا
ومدّ يد آمنه إلى دافع الخطيب
إلى الناصر الملك الذي ملئت به
قلوب البرايا من رجاء ومن رعب
كريم أتاه الموت ضيفا فلم يكن
لينزله إلا على السهل والرحب
ولو خاب منه قبل ذلك سائل
لخاب وليس البخل من شيم السحب
قضى فقضى المعروف وانقرض الندى
وحطت رجال الوفدي الشرق والغرب
أفاض على الدنيا سجال نواله
فغاضت عليه أعين العجم والعرب
ولو أنه يبكي على قدر حقه
أسال دموع المزن من أعين الشهب
جزاه عن الأسلام خيرا إلهه
فما مل عنه من دفاع ومن ذب
تداركه بعد ابتذال فقد غدا
وكان شديدا الخوف من مقارنة الصلب
أذل الله العدا منذ أطاعه
وسهل منهم كل ممتنع صعب
سقى الخلد عند الله دار مقره
يمتع منه بالجوار وبالقرب

فصل

في انقسام ممالكه بين أولاده وأخوته وبعض ماجرى بعد وفاته

قال العماد في كتاب البرق: خلف السلطان سبعة عشر ولداً.

أكبرهم الملك الأفضل نور الدين أبو الحسن علي، ومولده بمصر يوم عيد الفطر سنة خمس وستين وخمسة، وتولى بعده دمشق إلى أن خرج منها إلى صرخد، وتولاها عمه العادل في شعبان سنة اثنتين وتسعين مضافة إلى مملكه بالبلاد الشرقية والجزيرة وديار بكر.

ثم الملك العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان، ومولده بمصر ثامن من جمادى الأولى سنة سبع وستين، وتوفي بها في ملكه ليلة الأحد العشرين من محرم سنة خمس وتسعين، وتولى بعده أحد أولاده الصغار.

ثم الملك الظاهر غياث الدين غازي، ومولده بمصر منتصف شهر رمضان سنة ثمان وستين، وتولى حلب وأعمالها.

قال: ولقد أنشأت الرسالة الموسومة بالعتبى والعتبى فيما طرأ بعد السلطان إلى آخر سنة اثنتين وتسعين.

وقال في كتاب الفتح: تولى الملك الأفضل دمشق والساحل ومايجري مع ذلك من البلاد، وهو الذي حضر وفاة والده، وقام بسنة العزاء وفرض الاقتداء بأبيه في إيلاء الآلاء وإدناء الأولياء، وخلع على الامثال والامراء والافاضل والعلماء وآوى اليه اخوته، وضم جماعته، وجهاز اخاه الظافر خضرا مظفر الدين وانفضه لانجاد عمه العادل، كما سنذكره، وكانت حمص والمناضر والرحبة وبعلبك ومايجري معها في المملكة

الافضلية داخله، وقدم عليه سلطاناهما الملكان المجاهد والامجد الى دمشق، فتأكدت بينهم القرابة والالفة، ولما استقر الافضل بدمشق في مقام والده قدّم الى الديوان العزيز نجابين بانهاء الحال، ثم ندب ضياء الدين بن الشهرزوري في الرسالة، واصحبه عدّة والده في الغزاة وسيفه، ودرعه وحصانه، واطاف الى ذلك من الهدايا والتحف والخيل العراب ما استنفد وسعه وامكانه، فما تهيأ مسير الرسول إلا في اواخر جمادى الآخرة، حتى حصل كل ما أراد من الهدايا الفاخرة، وحتى كاتب مصر وحلب واعلم بمسير رسوله، حتى لا يظن انه انفرد بسوله، وقصد مداراة اخوته، وفضل بفضل نخوته، وذلك بعد ان جدّد نقش الدينار والدرهم بسمتي امير المؤمنين وولي العهد عدّة الدين.

وقال ابن القادسي: وفي يوم الثلاثاء مستهل رمضان حمل ابن الشهرزوري ما كان أصحابه الافضل من حمل الشام الى الديوان العزيز، وهو صليب الصليبوت الذي كان قد أخذه والده، وذكر أنه ذهب يزيد على العشرين رطلا مرصعا بالجواهر، ومعه خادم مختص بخدمته، وحمل فرس أبيه وزرديته وخوذته وكانت صفراء مذهبة، ودبوس حديد وسيف وأربع زرديات، وقالوا هذه تركته وبها كان يقاتل، وتحفا جمّة من الثياب، وحمل في جملة التحف أربع جوار من بنات ملوك الروم فيهن ابنة بارزان، وبنت صاحب جبلة.

قال العماد: وأمرني بانشاء الكتب وتحريرها، وتقريب المقاصد وتقريبها، منها: «اصدر العبد هذه الخدمة وصدرة مشروح بالولاء، وقلبه معمور بالصفاء، ويده مرفوعة الى السماء للابتهال بالدعاء، ولسانه ناطق بشكر النعماء، وجنانه ثابت من المهابة والمحبة على الخوف والرجاء، وطرفه مغض من الحياء، وهو للارض مقبل، وللفرص متقبل، وهو يمت بما قدمه واسلفه من الخدمات وذخره ذخر الأقوات لهذه الأوقات، وقد أحاطت العلوم الشريفة بأن الوالد السعيد الشهيد الشديد السيد المبير

للشرك المبيد، لم يزل أيام حياته، وإلى ساعة وفاته مستقيماً على جدد الجدد، مستقيماً في صون فريضة الجهاد إلى بذل الجهد، ومصر بل الامصار باجتهاده في الجهاد شاهده، والأنجاد والأغوار في نظره واحدة، والبيت المقدس من فتوحاته، والملك العقيم من نتائج عزماته، وهو الذي ملك ملوك الشرق وغل اعناقها، وأسر طواغيت الكفر وشدّ خناقها، وقمع عبدة الصليبان وقطع اصلاها، وجمع كلمة الايمان وعصم جنابها، ونظم أسبابها، وسدّ الثغور وسدد الأمور، وقبض وعدله مبسوط وامره محوط، ووزره محطوط، وعمله بالصلاح منوط، وماخرج من الدنيا الا وهو في حكم الطاعة الإمامية داخل، وبمتجرها الرابع الى دار المقامة راحل، ولم تكن له وصية الا بالاستمرار على جادتها والاستكثار من مادتها، وان مضى الوالد على طاعة إمامه، فالملك أولاده وأخواه في مقامه».

قال: وتولى ولده الملك العزيز أبو الفتح عثمان مصر وجميع اعمالها، وأبقاها على اعتدالها، ونقاها من شوائب اختلاها واعتلاها، واحبب سنتي الجود والبأس، وثبت القواعد من حسن السياسة على الاساس، واطلق كل ماكان يؤخذ من التجار وغيرهم باسم الزكاة، وضاعف ماكان يطلق برسم العفاة، وقدم أمر بيت الله المقدس وعجل له عشرة آلاف دينار مصرية لتصرف في وجوه ضرورية، ثم أمده بالحمل، وأفاض عليه من الفضل، وقرر واليه عز الدين جرديك على ولايته، وأقوى يده برعايته، ووالى حمل الغلات من مصر إلى القدس، وأبدل وحشته بوفاة السلطان من وفاته بالانس، ثم أشفق من غدر الفرنج في فسح الهدنة، فأتى من تجهيز العساكر الى البيت المقدس بكل ما في المكنة، ثم سمع بحركة المواصلة ومن تابعهم، وبايعهم وشايعهم، وقد خرجوا في ايمانهم حائنين، فخيم ببركة الجب واستشار امراءه أهل الرأي واللب، وجهاز جيشاً فوصلوا إلى دمشق وقد فرغ العادل من حرب القوم وسلمهم، وهز منهم أعطاف الاستكانة له بعد هزمهم، فرأى ان الحمد اعود.

قال: وتولى حلب وأعمالها وحصونها ومعقلها وكرائم البلاد وعقائلها الملك الظاهر غازي، وهو برجاحته وسماحته الطود والجود الموازن الموازي، وملك مملكة أقطارها واسعة، وأمصارها شاسعة، فحماها وحواهها، وبهاء العدل رواها وقواها، وأقر البيرة وأعمالها وما يجري معها على أخيه الملك الزاهر مجير الدين داود، ودخل في امره صاحب حماه ابن تقي الدين فأعزه وحماه.

قلت: وهو مأوى ذرية والده، وبقي الملك منهم في عقبه، وانحاز كل من أخوته وأولادهم إليه، وعولوا في تمشية أمورهم عليه، والأمر مستمر على ذلك في عقبه إلى الآن، والله تعالى ولي الاحسان.

ثم زال ملك هذا البيت في صفر سنة ثمان وخمسين وستمائة بسبب غلبة التتار الكفرة على البلاد، والله بصير بالعباد.

ومن كلام القاضي الفاضل في جواب ورد عليه منه بعد موت السلطان: «متى رأى المملوك خط مولانا طالعا في كتاب، وطلیعة على خطاب، تمثل ذلك الشخص الكريم، وذلك السلطان العظيم، وذلك الخلق الكريم، وذلك العهد القديم، فحیی بعد موته، وسبح من (یحیی العظام وهي رمیم) (١٤٠)، ورفع يده بما الله رافعه، ودعا بصالح الله سامعه».

قال العماد: وكان الملك العادل مع السلطان في الصيد قبل وفاته، وكان موافقه ومرافقه في مقتضياته، فلما عاد السلطان إلى دمشق ودّعه ومضى إلى حصنه بالكرک، فتابه النائب، ولم يحضر وقت احتضاره الاخ الغائب، فلما عرف وصل الى دمشق بعد أيام، ولم يطل المقام ورحل طالبا لبلاده بالجزيرة، حذرا عليها من أهل الجزيرة، وكان السلطان جعل له كل ما هو شرقي الفرات من البلاد والولايات، فلما وصل إلى الفرات

وجد مماخافه دلائل الفترات، فأقام بقلعة جعبر، وسير إلى الولايات
الولاية، ووصى برعاياه الرعاة، واستتاب في ميفارقين وحاني وسميساط
وحرّان والرّها، وشحنها بالشحن وعلم العدا انه في خوف، فخفوا
وعرضوا وصفوا، وكان سيف الدين بكتمر صاحب خلاط قد استبشر
بموت السلطان، وتلقب بالملك الناصر، وحدّث أمله بجر العساكر،
وراسل صاحبي الموصل وسنجار، وطير إليهم كتب الاستنفار، وضم إليه
من ماردين ماردين، وطار وطاش، وارتاش وانتاش، فبينا هو في أثناء
ذلك قتلته الاسماعيلية بخلاط رابع عشر جمادى الأولى سنة تسع وثمانين،
وأول من بدا أمره بالخروج على بلاد السلطان متولى ماردين، ونزل على
حصن الموزر، وهذا الحصن كان السلطان اقتطعه عن أعمال ماردين حين
صالح أهلها، وأضافه إلى نائبه بالرّها، ثم تحرك عز الدين أنابك صاحب
الموصل وأخوه عماد الدين زنكي صاحب نصيبين، وأرسلوا إلى العادل:
تخرج من بلادنا أو تدخل في مرادنا، فكتب إلى بني أخيه يستنجدهم
ويستنفرهم فأنجدوه، وكان إنجاد حلب أقرب، وتقدّم ذكر نجدة
الأفضل مع أخيه الظاهر، ونجدة العزيز الواصلة إلى دمشق بعد نجاز
الأمر، ووصلت الواصلة إلى رأس عين، والعادل بحران، وتقارب
العسكران حتى ان الطلائع تتواجه وتتجابه، فمرض صاحب الموصل
ولم يطق الإقامة، فغادر ورجع عماد الدين أخوه، وتضرع صاحب
ماردين، وتشفع الأمراء الأكابر فرضي العادل عنه وبلغه قدوم ابن أخيه
الظافر إلى الفرات، فكتب إليه بمنازلة سروج وهي من أعمال ماردين،
وأمدّه بابن تقي الدين، وابن المقدم، فنزلوا عليها ثامن رجب وفتحوها
تاسعه، ورحل العادل منتصف رجب إلى الرّقة وتسلمها، ثم تملك بلد
الخابور جميعه، وجاء إلى نصيبين فنزل بظاهرها، وشرع في ضم ذخائرها،
فجاءت الرّسل العمادية في طلب الصلح، فرحل ونزل دارا، وأتاه خبر
وفاة صاحب الموصل وتسليم بلده إلى ولده نور الدين أرسلان شاه،
وجرى بينهم وبينه صلح، ثم كاتبه أهل خلاط، فرحل إليها فرأى أن

البرد يشتد وأمد الحصار يمتد، فعاد إلى حران والرها، وأعرض عن مخالطة خلاط، وتأخر إلى الربيع أمرها.

قال: وإقليم اليمن مستقر للملك ظهير الدين سيف الاسلام طغتكين ابن أيوب أخي السلطان، وهو هناك سلطان عظيم الشأن، مستول على جميع البلدان، وكان قد وصل ولده مع الحاج قبل وفاة السلطان بأيام، فلما استقر الملك الأفضل على سرير أبيه كاتب عمه سيف الاسلام.

فصل

في وفاة صاحب الموصل وتمة أخبار هذه الفتنة ببلاد الشرق

قال عز الدين أبو الحسن علي بن الأثير: لما وصل خبر وفاة صلاح الدين إلى صاحب الموصل عز الدين استشار في الذي يفعله، فأشار عليه أخي مجد الدين أبو السعادات بالأسراع في الحركة، وقصد البلاد الجزرية فإنها لا مانع لها منه. وقال مجاهد الدين قايماز: ليس هذا برأي وإنما نترك وراءنا مثل المولى عماد الدين صاحب سنجار، ومعز الدين صاحب الجزيرة، ومظفر الدين صاحب إربل ونسير، وإنما الرأي أنا نراسلهم ونستميلهم ونأخذ برأيهم وننظر ما يقولون. فقال أخي: إن كنتم تفعلون ما يشيرون به ويرونه فاقعدوا فانهم لا يرون إلا هذا لأنهم لا يؤثرون حركتكم ولا قوتكم، إنما الرأي أن يبرز هذا السلطان ويكاتبهم ويراسلهم، ويستميلهم ويبدل لهم اليمين على ما بأيديهم، ويعلمهم أنه على الحركة، فليس فيهم من يمكنه أن يخالف خوفا من قصد ولايته لاسيما إذا رأوا جده وخلو البلاد الجزرية من مانع وحام، فهم لا يشكون أنه يملكها سريعا فيحملهم ذلك على موافقته، ومتى أراد الإنسان أن يفعل فعلا لا تتطرق إليه الاحتمالات بطلت أفعاله، إنما إذا كانت المصلحة أكثر من المضرة أقدم، وإن كان العكس أحجم، فظهرت أمارات الغيظ على مجاهد الدين، فسكت أخي لأنه هو كان مخدوم الجميع على الحقيقة، والحاكم فيهم، واتبع المرحوم—يعني صاحب الموصل—قول مجاهد الدين، وأقام بالموصل عدة شهور يرأسل المذكورين فلم ينتظم بينه وبين أحد منهم حال، غير أخيه عماد الدين فإنها اتفقا على قواعد استقرت بينهما، فإلى أن انفصل الحال وصل الملك العادل أبوبكر بن أيوب من الشام إلى حران وأقام هناك، وجاءته العساكر من دمشق وحمص وحماه وحلب، وامتنعت البلاد به، وسار عز

الدين عن الموصل إلى نصبيين وقد ابتدأ به اسهال بنزيف، واجتمع فيها بأخيه عماد الدين، وسارا في عساكرهما إلى تل موزن من شبختان لقصد الرها، فأرسل العادل حينئذ يطلب الصلح، وأن تكون البلاد الجزرية: الرها، وحران، والرقة وما معها بيده على سبيل الاقطاع من عز الدين، فلم يجبه إلى ذلك وقوي المرض به واشتد إلى أن عجز عن الحركة، فعاد إلى الموصل في طائفة يسيرة من العسكر، فلما وصل دنيسر رأى ضعفا شديداً فأحضر أخيه، وكتب وصية، ثم سار إلى الموصل فوصلها مريضاً بالاسهال، وبقي كذلك إلى أن توفي في السابع والعشرين من شعبان سنة تسع وثمانين وخمسمائة.

قال: ولم أسمع عن أحد من الناس بمثل حاله في مرضه، فإنه كان لا يزال ذاكراً لله تعالى حتى أنه كان إذا تحدث مع إنسان يقطع حديثه مراراً، ويقول أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت، وهو حي لا يموت، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، وأشهد أن محمداً صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله، وأشهد أن الموت حق، وعذاب القبر حق، وسؤال منكر ونكير حق، والصراط حق، والميزان حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، ويقول لمن عنده يخاطبه: إشهد لي بهذا عند الله تعالى، ثم يعود إلى حديثه، وأحضر عنده من يقرأ القرآن، فلم يزل كذلك إلى أن توفي رحمه الله ودفن بالمدرسة التي أنشأها بباطن الموصل، مقابل دار المملكة، وهي للفريقين الشافعية والحنفية، وكانت مملكته نحو ثلاث عشرة سنة وستة أشهر، وكان أسمر مليح الوجه حسن اللحية، خفيف العارضين، وحكى لي والدي قال: هو أشبه الناس بجده الشهيد قدس الله روحه، قال: وكان رحمه الله ديناً خيراً قد ابتنى في داره مسجداً يخرج إليه في الليل، ويصلي فيه أوراداً كانت له، ويلبس فرجية كان قد أخذها من الشيخ عمر النسائي الصوفي، ويصلي فيها، وكان قد حج ولبس بمكة حرسها الله خرقة التصوف من الشيخ عمر النسائي المذكور، وكان من

الصالحين، وأوصى بالملك لابنه نور الدين أرسلان شاه، وأراد اخوه شرف الدين بن مودود بن زنكي أن يوليه فلم يفعل، وبقي نور الدين إلى سنة سبع وستمائة، فتوفي في شهر رجب منها، ودفن بالمدرسة التي أنشأها بباطن الموصل حذاء دار السلطنة، وكان عهد بالملك لابنه القاهر عز الدين مسعود، وجعل الامير بدر الدين لؤلؤا القائم بأمر دولته، وولاه إمارة الجيوش والعساكر، وسياسة القبائل والعشائر، ثم توفي الملك القاهر في ربيع الاول من سنة خمس عشرة وستمائة فجأة وخلف ثلاثة بنين صغاراً.

قال: وأما عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي، صهر نور الدين رحمه الله، وهو صاحب سنجار، فإنه توفي في المحرم سنة أربع وتسعين، وكانت ولايته ثلاثين سنة، وكان عدله قد عم البلاد، وغمر العباد، وأريقت الخمر وحد شاربها، وكانت صدقاته تصل إلى أقاصي البلاد، وتولى بعده ولده الأكبر قطب الدين محمد بن زنكي، وكان متولي أمره مجاهد الدين يرنقش العمادي.

قال: وحاصر الملك العادل أبو بكر بن أيوب ماردين في سنة خمس وتسعين، فبقي محاصراً لها أحد عشر شهراً، ولم يبق إلا الاستيلاء عليها، فبينما العادل يحاصرها إذ توفي ابن أخيه الملك العزيز صاحب مصر، وكان عسكره مع عمه العادل على ماردين، فلما توفي ملك أخوه الأفضل مصر، وكان بينه وبين عمه العادل نفرة، فلما ملك مصر أرسل إلى العسكر المصري الذي مع عمه يأمرهم بمفارقتهم، ففارقوه، وعادوا إلى مصر فقل جمعهم وعسكرهم، ثم خرج الأفضل عن مصر عازماً على حصر دمشق واستعادتها من عمه، فسار العادل عن ماردين جريدة إلى دمشق ليحفظها بعدما كان قد طلع سنجقه إلى قلعة ماردين، وترك ولده الملك الكامل محمداً محاصراً لها إلى أن اجتمع صاحب سنجار، وصاحب الموصل على ترحيله عنها، فرحل.

قال: وفي سنة ست وستمائة سار الملك العادل بن أيوب من الشام إلى
سنجار في العساكر الشامية والمصرية، والجزرية والديار بكرية، فحصرها
ونزل عليها من كل جانب، ونصب أحد عشر منجنيقا ثلاثة أشهر،
وانتخى صاحب الموصل وصاحب إربل لصاحب سنجان، وأنفذ الخليفة
رسله فأصلح الأمر، وانتظم الصلح والله الحمد.

فصل

وأما رسالة العماد: الكاتب المعروفة بالعقبى والعقبى التي أشار إليها في آخر كتاب البرق، فيما جرى بعد وفاة السلطان إلى سنة اثنتين وتسعين، فقد وقفت عليها، وحاصل ما فيها أن قال: لما توفي السلطان رحمه الله، وملك أولاده كان العزيز بمصر يقرب أصحاب أبيه، ويكرمهم، والأفضل بدمشق يفعل ضد ذلك يقرب الأجانب ويبعد الاقارب، وأشار عليه بذلك جماعة داروا حوله كالوزير الجزري الذي استوزره.

قلت: هو الضياء ابن الأثير أخو عز الدين المؤرخ ومجد الدين وفيه يقول الشهاب فتیان الشاغوري :

متى أرى وزيرك م
وماله من وزر
يقله الله فذا

أوان قل مع الجزر

قال العماد: لما طلب من الأمراء أن يخلفوا له ، أظهروا له أيماناً وهم قد أضمروا الحنث فيها ، ولم يخف ذلك عليه ، ولما رأى الفاضل أمور الأفضل مختلة، تركه وسار إلى مصر ، وشرع الوزير الجزري في تفريق العصابة الناصرية، وما منهم إلا من فارق إلى الديار المصرية ، وكان قد أشير على الأفضل بإخلاء البيت المقدس لنواب العزيز بأعماله، حذراً من تكاليفه وأثقاله، فأجاب إلى ذلك، وقد كانت نابلس وأعمالها قد وقف السلطان ثلثها على مصالح القدس، وباقها على ابن الأمير علي ابن أحمد المشطوب فشاركه أحد الأمراء الأكراد فيه، فمدوا أيديهم إلى الوقف، وساءت سيرتهم وتخوفوا من إنكار الملك العزيز عليهم، فلجأوا إلى الأفضل، فأفضل عليهم وسكن إليهم، فتأثر الملك العزيز بذلك، وأقوى الأسباب فيما حدث من النصارى، نزار الأمراء الناصرية الكبار، ومفارقتهم دمشق إلى مصر على سبيل الإضطراب والإضطراب، فأعزهم

العزیز، ورفعهم فاتفقوا على أن تكون كلمة الإسلام مجمعة على الملك العزیز لإحياء سنة والده في الجود والبأس والكرم، ومن جملة الأسباب الباعثة تسلم الفرنج ثغر جبيل من بعض مستحفظيه، وضعف الأفضل عن استخلاصه، فقبل للعزیز: إن توانيت استولت الفرنج على البلاد، فخرج العزیز بعساكره، وبلغ الأفضل فضاق صدره، واجتمع بمن في خدمته من الأمراء برأس الماء، وأراد أن يستعطف قايماز النجمي وكان في اقطاعه بالسواد، وكان بينه وبين الأفضل شقاق وعناد، فأرسل إليه فلم يقبل ورحل إلى عسكر العزیز، ورأى الأفضل أن يكتب إلى أخيه بكل ما يجب من إعلاء كلمته والاجتماع عليه، ويكون الأفضل من بعض القائمين بين يديه، طلباً لتسكين الفتن، ورغبة في ذهاب الاحن، فأشير عليه بغير الصواب، وقيل أنت الكبير وإليك التدبير، فجدد واجتهد ولا يعلم أصحابك بهذا الخور الذي داخلك، والجبن الذي نازلك، ونحن بين يديك، وكلنا عاقدون بالخصاص عليك، ووصل رسول الملك الظاهر والكتب من الملوك الأكابر بالانجاد المتظاهر للأفضل، وسير الأفضل إلى عمه العادل وهو بحران والرها كتباً ورسلاً، لما أبطأ عليه مسير عز الدين عثمان الزنجيلي على نجيب ليسرع ويأتي به عن قريب، وكتبه واصلة بعزمه على نصره ونجدته، وذلك أوائل جمادى الآخرة من شهور سنة تسعين، ولم يشعر الأفضل إلا والعزیز بعساكره قد وصلوا إلى الفوار، فعجل الرحيل وقد خالطت عساكر العزیز ساقه جيش الأفضل، فأسرع ودخل دمشق يوم الجمعة خامس جمادى، ونزل العزیز يوم السبت بالكسوة، ونزل على دمشق يوم الأحد، فلم يزل الأفضل يمانع ويدافع حتى وصل عمه العادل، فكتب إلى العزیز يسأله الاجتماع فتواعدا واجتمعا راكبين بصحراء المزة، فعذله في أخيه، واستنزله عما كان فيه، فقال: على رضاك واتباع هواك، وقال: نفس عن البلد الخناق، وكان قد بلي البلد منهم بما لا يطاق، من قطع الأنهار، وقطف الثمار، فتأخر العزیز إلى صوب داريا، والأعوج، وكان قد اجتمع عند الأفضل من

الملوك: عمه العادل، والمجاهد أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد ابن شيركوه صاحب حمص، والأجد مجد الدين بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك، والمنصور ناصر الدين محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب صاحب حماه، ثم وصل الملك الظاهر غياث الدين ابن السلطان، فانفقوا على عقد يؤكد، وعهد يمهد، ورحل العزيز إلى مرج الصفر لكون المقام به أرفق، فمرض حتى أيس منه، ثم أفاق وأرسل من جانبه الأمير فخر الدين جركس، واعتمد عليه في هذه النوبة، فوصل إلى العادل في تعديل الأمور، فتقرر بينهم الصلح، وتزوج العزيز ابنة عمه العادل، وخرج الملوك لتوديع الملك العزيز في أول شعبان واحداً بعد واحد، فخرج الظاهر أولاً، والتقى ونزلا بمرج الصفر، وبات عنده ليلة، ثم رجع وخرج العادل، ثم الأفضل، فلما اجتمع بأخيه فارقه وما ثوى، ورجع كل إلى بلده، ولما استقر الأفضل بدمشق قضى حقوق الجماعة وشكرهم، ورحل الظاهر صوب حلب رابع عشر شعبان، وأقام العادل إلى تاسع شهر رمضان، ورحل إلى بلده الرها وحران، ثم إن الأفضل نظم أبياتاً يكتبها إلى أخيه العزيز في استعطافه واستمالته، وقال: كنت فارقت أخي مذ تسع سنين، وما التقينا إلا في هذه السنة فقلت:

نظرتك نظرة من بعد تسع
تقضت بالتفريق من سنين
وغض الدهر عنها طرف غدر
مسافة قرب عين من جبين
وعاد إلى سجيته فأجرى
بفرقتنا العيون من العيون
فريح الدهر لم يسمح بوصول
يعود به الهجوع إلى الجفون
فراقنا ثم يعقبه بين
يعيد إلى الحشا عدم السكون

ولا يبدي جيوش القرب حتى
يرتب جيش بعدي الكمين
ولا يبدي محلي منك الا
إذا دارت رحى الحرب الزبون
فليت الدهر يسمح لي بأخرى
ولو أمضى بها حكم المنون

قال: ثم كثر الشر ممن حول الأفضل في حق الأمراء الكبار ذوي الأقدار، فأنفوا من ذلك، وازمعو على الإنفصال لسوء تلك الحال، فممن سار إلى مصر عز الدين سامة، وحرص العزيز على القيام لنصرة الدولة الناصرية، وعرفه أن أخاه الأفضل مسلوب الإختيار، مع من حوله من الأشرار، وممن سار إلى مصر القاضي محيي الدين محمد بن أبي عصرون، وتولى بعد أشهر قضاء القضاة بمصر وأعمالها، وذلك سنة إحدى وتسعين فاستمرت ولايته إلى أن عاد العزيز من الشام، وتبعه العادل فصرفه وأعاد القضاء إلى زين الدين علي بن شرف الدين يوسف الدمشقي، وكان نائباً لصدر الدين عبد الملك بن عيسى بن درباس، ثم استقل ثم عزل بابن أبي عصرون ثم أعيد إليه، وكان الأفضل قد اشتغل بعد انصراف أخيه باللذات، وتشاغل عن أمور الناس بإدمان الشراب، مع من حوله من الأصحاب، ثم أقلع عن ذلك وتاب وجدّ في الذكر والزهد وأتاب، وشرع في كتب مصحف بخطه، وحسنت طريقته، وظهرت حقيقته، وذلك في أوائل سنة إحدى وتسعين.

وفي هذه السنة في ربيع الآخر وصل الخبر بأن العزيز قادم يحصر دمشق مرة ثانية، فاشتدّ غم الأفضل، فأشير عليه بأن يرحل إلى عمه العادل، ويأتي به لرفع هذا القضاء النازل، فرحل رابع عشر جمادى الأولى والتقى بعمه بصفين، وطلب منه الرجوع معه إلى دمشق ففعل، ووصل العادل إليها تاسع جمادى الآخرة، وتخلف عنه الأفضل، وقصد

حلب للاستظهار بأخيه الظاهر، فوثق معه الإيوان على ما كان عليه من الصفا، وكذلك فعل بابن تقي الدين بحماه، ووصل إلى دمشق واجتمع مع عمه العادل، وكان العادل أبداً يشير بصرف الوزير الجزري، وكان قد استولى على الأفضل، فلم يقبل، فكان العادل أبداً مغتماً لذلك، فبالغ الأفضل في إكرام عمه، وإزالة غمه حتى ترك له سنجقه وصار يركب في خدمة عمه، وضاق أخوه الظافر من هذه الحال، وكان الظاهر قد نفر عليه جماعة من الملوك والأمراء ممن هم في طاعته من جملتهم صاحب حماه، وعز الدين بن المقدم صاحب بارين، فراسلا العادل في الاعتصام به، وكان من جماعتهم بدر الدين دلدرم بن بهاء الدولة بن ياروق صاحب تل باشر فاعتقله الظاهر وبني عمه، وطلب منه تسليم حصنه، فشفع العادل فيهم، وكفل أنه يكفهم ويكفيهم، واستصحبهم إلى دمشق فطلب منه الظاهر الوفاء بضمانه فتعذر عليه ردّهم، وتيسر له ودّهم، فغضب الظاهر لذلك وراسل العزيز يحثه على الإسراع في القدوم فأقبل العزيز وخيم بالفوار .

وشرع العادل في تدبير أمور الأفضل، فكاتب الأمراء الأسيديّة من أصحاب العزيز يحثهم على تركه، والانقطاع إلى حزب الأفضل وسلوكه، وكانت الأسيديّة أبداً في عناء من تقدّم الناصرية عليها، وراسل العادل أيضاً العزيز يخوفه من قبل الأسيديّة، ويعرفه ما انطوت عليه قلوبهم من الغل، فكانوا إذا لقيهم عرفوا في وجهه التغير عليهم فرغبوا عنه وحسنوا للأكراد مرافقتهم في الإنصراف عنه، ففعلوا، وكان أمير أمراء الأكراد أبو الهيجاء السمين، فدارت الأكراد حوله وقالوا: لانأمن عليك من الناصرية فأبرموا أمرهم، وعجلوا رحيلهم، فرحل أبو الهيجاء والمهرانية والأسيديّة عشية الإثنين رابع شوال، وكانوا أكثر العسكر، واعلم العزيز بهم فما بالى بانصرافهم، وقال: صفونا من أكرادهم ولم يأمر أصحابه باتباعهم وردّهم، وبقي في خواصه مقيماً تلك الليلة، ثم رحل عائداً إلى مصر فجاء رسول أبي الهيجاء السمين إلى العادل يعلمه برحيل العزيز

خائفاً، ويأمره بالقدوم ليلحقوه ويأخذوه ويتسلموا ملك الديار المصرية، فتحالف العادل والأفضل على ملك مصر أن يكون للعادل الثلث وللأفضل الثلثان.

وخرجوا يوم الأربعاء في الجيوش واستناب الأفضل بدمشق أخاه الأصغر قطب الدين موسى، وأما العزيز فإنه سار وأخذ طريق اللجون والرملة وفرق من الأسدية الذين بالقاهرة أن يفعلوا فعل إخوانهم فيمنعوه من دخول البلد، وكان مقدمهم الأمير بهاء الدين قراقوش وهو أكبر الأمراء الأسدية قد استنابه العزيز بالديار المصرية فهو مقيم على الصفاء، والمودة والائحاء، فلما وصل العزيز تلقوه، وإلى ذروة سلطنته رقهوه، وأما العادل والأفضل فاجتمعا بالمتخلفين عن العزيز وحرصت الأسدية أن يسبقوا العزيز فلم يقدروا، واجتهدوا أن يدركوه ويتقدموا فتأخروا فأمرهم العادل بالثبات، وتسلم القدس وأعماله وما يجاوره من أعمال الساحل أبو الهيجاء السمين بأمر الأفضل والعادل فرتب فيها نوابه، وأسكنها أصحابه، وصحبهم إلى الديار المصرية لمحالفة الأسدية ومخالفة الناصرية، فنزل بهم العادل على بلبيس، وكان أوان أخذ زيادة النيل في الإنتهاء والسعر غالى، وظهرت ندامة الأسدية، وضعفت معونتهم، وضوعفت مؤونتهم، فخاف من مكرهم والعدول إلى مستقرهم، فأرسل إلى القاضي الفاضل يستوفده للإستزاره، ويسترشده بالإستشارة، فألزمه العزيز بإجابة سؤاله فخرج إليه واستبشر الناس بخروجه رجاء الصلح، وركب العادل وتلقاه على فراسخ واجتمعا وأصلحا الأمور على ما يجب الفریقان، وعفا العزيز عن الأسدية، وأقام العادل عند العزيز وأما الأفضل فإن العزيز خرج إليه وودّعه فانصرف، ومعه أبو الهيجاء السمين وتولى القدس، ووصل الأفضل إلى دمشق غرة المحرم سنة إثنيتين وتسعين.

ثم إن الأفضل لازم صيامه وقيامه، وقلل شرابه وطعامه، وحسن شعاره، واستوى ليله ونهاره، ووزيره الجزري قد بلي الناس منه ببلايا،

وهو في غفلة عن تلك القضايا، وكان يدخل إليه ويوهمه من قبل أقوام أنهم عليه، وأنهم يميلون إلى أخيه فيصدّقه الأفضل فيما يدعيه، فصار يبلغ العادل عنه أحوال ما تعجبه بل تغضبه، وصار يتصل به كل من هاجر من الشام إلى مصر، وما منهم إلا من يشكو من الوزير الجزري، وكان قايماز النجمي قد لصق بالعادل، وكذلك عز الدين سامة، وصاهر العادل وظاهره، وكان العادل بمصر، مستوطنا للقصر، فوعد الجماعة بإزالة يد الوزير الجزري وردّه إلى بلاده، وقرّر مع العزيز، تسيير عسكره معه إلى الشام ليمهد له قاعدة الملك في سائر بلاد الإسلام، فأخرج العساكر إلى بركة الجب، وخرج العزيز لتشييعه وذلك مستهل ربيع الأوّل، ووصل الملك الزاهر مجير الدين داود من حلب إلى أخيه العزيز من جانب الظاهر لتسكين هذا الرهج الثائر، ومعه سابق الدين عثمان صاحب شيزر، والقاضي بهاء الدين بن شدّاد، ثم إن العادل أشار على العزيز بأن يوافقه على المسير ويرافقه فيه، فراه عين التدبير، فسارا بالعساكر نحو الشام، ولما انصرفت رسل الظاهر من مصر بما طلبوا مروا بدمشق، فأعلموا الملك الأفضل بما أبرم من الأمر، فضاق صدره، وطال فكره، واستشار أصحابه فأشار عليه شيوخ الدولة بأن يستقبل أخاه وعمه، ويسلم لهما حكمه وأشار الجزري وأصحابه بالتصميم على المخالفة، وترك المجاملة والملاطفة، ثم دخل عليه أخوه الملك الظافر خضر فشجعه وصبره، وتولى أسباب التحصير، وحلفوا الأمراء والمقدمين، وقطعوا ما فوق المصلى عند مسجد فلوس بفصيل، ورتبوا رجالا حوالي البلد يتناوبون لحفظه في البكرة والأصيل، وتفرّق الأمراء على الأسوار والأبراج، وجاءت الرسل الظاهرية لإظهار المظاهرة، وندب الأفضل فلك الدين أخا العادل إليه منه رسولا، فوصل إلى العسكر العزيزي بالداروم وغزة، ولقي عند العزيز من قوله العزة، فبقي فلك الدين هناك أياماً في إصلاح ذات البين، ولاشك أنهم اشتروا على الأفضل شروطاً وردّوه بها وأقاموا ينتظرون الجواب، فنفذ من ذكر أن الأفضل أبى ذلك،

فلما رأى الأكابر وشيوخ الدولة أن الأفضل لا يسمع من رأيهم، وأنه عازم على المحاربة، ولا يعدل عن رأي وزيره، مع ما قد عرفه من شؤم تدبيره، شرعوا في إصلاح أمورهم في الباطن، فراسلوا العزيز والعاقل واستظهر كل لنفسه، وأقام العسكر منذ عاشر رجب على البلد مستظهِراً بالعدد والعدد، لا يحدث حدثاً، ولا يعبت بالبلد إلا عبثاً، فكتب الأولياء من البلد إلى العزيز والعاقل بانتهاز الفرصة، فركبوا وتأهبوا يوم الأربعاء السادس والعشرين من رجب، فما صدهم عن قصد البلد أحد، وما كان في طريقهم إلا الملك الظافر ومعه عسكر حلب، فقاتل على ظن قتال الجماعة، وما عنده علم بما دبروه من المخامرة، فحادوا ولم يكثرثوا، ووصل العزيز إلى الميدان الأخضر، ووصل العادل إلى باب توما وكان الأمير الأمين به قد استنهضه إليه بكتبه، ففتحه له فدخل العادل وأصحابه من باب توما والباب الشرقي، وبات العادل في الدار الأسدية، ودخل العزيز من باب الفرج، وبات في دار عمته الحسامية، وخرج إليه الأفضل ولقيه، وتجرع من هم زوال ملكه ما سقيه، فلما ملك العزيز دمشق أقام أياماً بالميدان الأخضر الكبير إلى أن انتقل الأفضل من القلعة بأهله وأصحابه، وأخرج وزيره الجزري مخفياً في صناديقه، إشفاقاً عليه من قتله وتحريقه، وتحول الأفضل تلك الأيام إلى مسجد خاتون وما يجاوره ومعه وزيره فهرب ليلاً إلى بلاده وقد آذخ فيها أموال دمشق وأعمالها ثلاث سنين.

قال وكان العزيز قرّر مع العادل أن يقيم العزيز بدمشق ويستتبع العادل بمصر، فلما ملك دمشق ندم على ما قرّره، ورجع عما دبّره، ونفذ إلى أخيه الأفضل في السر يعتذر إليه، ويشير بما كان اشترط عليه، فأظهر الأفضل هذا السر لصحبه، والمخصوصين بقربه، فقالوا لا تنخدع بهذا القول فربما كانت خديعة، وأطلع عمك العادل على هذا السر فإنه يرى ذلك عين البر، فأرسل إلى العادل من أعلمه بذلك فعزت عليه مراسلة العزيز الأفضل واجتمع بالعزيز وعته، وقرعه بما أنبىء به وأنبه، وقال

له: أبني وتهدم، وأوجد مصالحك وتعدم، فأنكر الحال وأحالتها وانتقض الأمر قبل إبرامه، ووجه إلى الأفضل من أزعجه، وإلى صرخد أخرجه، وسد طريق الاستنصار على أخيه الظافر حتى أسلم في تسليم بصرى للظفر بسلامته، وبذها ولم يتبعها بندامته، ورحل إلى حلب وأظهر الظاهر الاحتفال به، وأما الأفضل فإنه سار إلى قلعة صرخد وسكنها، وحوّل أهله وأخاه قطب الدين إليها وتوطنها، وعند خروج الأفضل من قلعة دمشق دخل العزيز إليها يوم الأربعاء رابع شعبان، وجلس يوم الجمعة في دار العدل، واعتقد الناس أنه يطول مقامه عندهم، فلم يشعروا به إلا وقد برّز للرحيل، وتقدم إلى العادل بأن يتولى البلاد وفارق دمشق عشية الإثنين تاسع الشهر، ونزل بالمخيم فوق مسجد القدم، ثم تحوّل إلى الكسوة وودّعه بها يوم السبت رابع عشر الشهر، فلما عاد العادل من وداع العزيز قرىء بالجامع منشوره العزيزي بالبلاد والأعمال والنظر في جميع الأحوال، وشاع أنه نائب العزيز، وهو سلطانه، وأبقى الخطبة باسم العزيز خالية من اسمه، حالية برسمه، وضرب الدينار والدرهم على سكتته وأظهر أنه قوي بشوكته وشكته، وجلس يومي الإثنين والخميس للعدل، وبسط يده لجمع الأموال وخزنها، لوقت عموم الحاجة إلى صرفها.

فصل

هذا آخر ما انطوت عليه «رسالة العتبي من أخبار ما جرى بعد موت السلطان رحمه الله»، وللعماد أيضاً كتاب آخر سماه «بنحلة الرحلة» ذكر فيه أيضاً نحواً من ذلك وهو أن الأحوال اختلت وتغيرت بعد موت السلطان، وأراد العماد الرحلة إلى مصر، فأصعبه الأفضل رسالة إلى أخيه العزيز فمضى إليه وعنده عمه العادل، فلم يتمكن من الرجوع إلا معها لما خرجا بالعساكر فذكر الحديث في أخذ البلد، قال: وخرج الملك الأفضل واجتمع بالعزيز في الميدان، ودخلا من باب الفرج متصاحبين إلى الضريح الناصري، وصعد العزيز القلعة يوم الأربعاء وصلى هذه الجمعة عند ضريح والده في هيئة المودع، وأظهر بالبكاء والنحيب عنده سر القلب الموجه، ودخل دار الأمير سامة في جوار تلك القبة، وأمر القاضي محيي الدين بن الزكي بأن يبنها مدرسة للتربة، قلت هي المدرسة المعروفة بالعزيزية، ووقفها قرية عظيمة تعرف بمحجه، فهذا قدر ما في كتاب النحلة مما يتعلق بها نحن فيه، ولم يكن ذكر مثل هذا من شرط كتابنا هذا، لأنه موضوع للدولتين النيرتين إلا أنه لا بد من ذكر ما يتعلق بهما مما وقع فيهما وعقبهما، وتبعنا العماد فيما ذكر في العتبي لكونه أشار إليها في كتاب البرق، واستوفينا ما في كتاب البرق، والفتح القدسي، والتاريخ الأتابكي، وكتاب القاضي أبي المحاسن وأتينا على ما فيها من المحاسن، وانضاف إلى ذلك قطعة كبيرة من مواضع متفرقة كثيرة من عدة مصنفات، ودواوين ومراسلات، والله تعالى يوفق ملوكنا للاقتداء بسيرة سلفنا، في إقامة فرض الجهاد، وتخليص البلاد من أيدي الكفرة، والنظر في مصالح العباد، ومن كتاب فاضلي: «أما هذا البيت فإن الآباء منه اتفقوا فملكوا، وإن الأبناء منهم اختلفوا فهلكوا، وإذا غرب نجم فما الحيلة في تشريقه وإذا بدا تخريق ثوب فما يليه إلا تمزيقه، وهيهات أن يسد على قدر طريقه، وإذا كان الله مع خصم على خصم فمن كان الله معه فمن يطيقه».

فصل

بعد انتهاء هذا الكتاب واسماعه مرة، وقفت على ما حسن لي الحاقه بهذا الكتاب، من ذلك أن القاضي الفاضل كتب في سنة ثلاث وتسعين إلى القاضي محيي الدين بن الزكي كتابا قال فيه: « وما جرى في هذه المدود من المثلاث الجارية، والمعضلات العادية بأس من الله طرق بيئاته، ونحن نيام وظن الناس أن اليوم الموعود قد طرق في الليل الممدود فإذا هم قيام إن الله تعالى أتى بساعة كالساعة، كادت تكون للدنيا كساعة،

في الثلث الأول من ليلة الجمعة ثامن عشر جمادى الآخرة، وذلك أنه أتى عارض فيه ظلمات متكاثفة، وبروق خاطفة، ورياح عاصفة، قوي لهوبها واشتد هبوبها، وارتفعت لها صعقات، وتدافعت لها أعنة مطلقات، فرجفت لها الجدران واصطفقت، وتلاقت على بعدها واعتنقت، وثار من السماء والأرض عجاج، فقيل لعل هذه على هذه قد انطبقت، وتوالت البروق من جهة المقطم على نظام، وتبع الواحدة الأخرى وتقضى الثانية على أثر الأولى، وترى البروق واقفة وهي تتعاقب، وقائمة وهي تتجاذب، ولا تحسب إلا أن جهنم قد سال منها واد، وعدا منها عاد، وزاد عصف الرياح إلى أن انطفأت سرج النجوم ومزقت أدم السماء، ومحت ما كان فوقه من الرقوم، ولا تزال هذه الرياح تسكن سكونا خفيفا ثم تعاود عودا عنيفا، فكنا كما قال الله تعالى (يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق) (١٤١) وكما قلنا: ويردون أيديهم على أعينهم من البوارق، لاعاصم من الخطف للأبصار، ولا ملجأ من الخطب إلا معاقل الاستغفار، وفرّ الناس رجالا ونساء وأطفالا، ونهضوا من دورهم خفافا وثقالا، لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا، اذ يستغيثون ربهم ويذكرون ذنبهم، لا يستغربون العذاب لأنهم على موجباته مصرون، وفي وقت وقوع واقعاته باستحقاقه مقرون، معتصمين بالمساجد الجامعة، ومتلقيين الآية النازلة من السماء بالاعناق الخاضعة، بوجوه عانية، ونفوس عن الأموال

والأهل سالية، ينظرون من طرف خفي، ويتوقعون أي خطب جلي، قد انقطعت من الحياة علقهم، وعميت عن النجاة طرقهم، ووقعت الفكرة فيما عليه قادمون وندموا ونحمد الله أن نفعهم بأنهم نادمون، وقاموا إلى صلواتهم وودوا أن لو كانوا من الذين عليها دائمون، ولم يزل ذلك دأبهم كلما سكنت الرياح تحركت، وكلما قيل استقلت بركت، وكلما أخذت قيل ما تركت، حتى الثلث الأخير من الليلة المذكورة، والقلوب إلى الحناجر بالغة، والأبصار عن سننها زائغة، إلى أن أذن الله في الركود، وأسعف الهاجدين بالأمر لها بالهجوم، وأصبح كل يسلم على رفيقه ويهنيه بسلامة طريقه، ويرى أنه قد بعث بعد النفخة، وأفاق بعد الصيحة والصرخة، وأن الله قدر له الكرة، وأدبه بعد أن كاد يأخذ على الغرة، وورد من الخبر أن المراكب كسرهما ماكان معترضاً في التحرز للعارض، والأصول العادية من الشجر عدت عليها الريح بحماها النافض، وأن في الطرق من المسافرين من كان نائماً فدفتته الرياح حياً، وركب عما أغنى الفرار مما هو أمامه شيئاً، ولا يحسب المجلس أني أرسلت القلم محرفاً، والقول مجزفاً، فالأمر أعظم ولكن الله سلم، والخطب أشق، وما بلغت ولا قضيت بهذا التكثير بعض الحق، ونرجو أن الله سبحانه قد أيقظنا، بما وعظنا، ونبهنا بما وهنا، فما من عباده من رأى القيامة عياناً، ولم يلمس عليها من بعده برهانا إلا أهل بلادنا فما اقتص الأولون مثلها في المثالات، ولا سبقت لها سابقة في العضلات، والحمد لله الذي من فضله أن جعلنا نخبر عنها ولا نخبر عنها ولا نخبر عنها، ونسأل الله أن يصرف عنا عارض الحرص والغرور إذا عنا، وشغلت خدمته بهذا المهم، وجعلته على علم من هذا العلم، فالسعيد من وعظ بغيره، وقد كانت لنا وفيها الموعدة، وللذكرى حدود ونعوذ بالله من اقامة حدوده المغلظة».

ومن كتاب له آخر الى العادل في سنة ثلاث وتسعين أيضا: «وقد تجدد من وصول العدو اللعين وحركته إلى جانب بيروت، وخطر البلاد ماأذهل كل مرضعة، وأوقع في ضائقة تنفق الأفكار فيها من سعه،

وللاسلام اليوم قدم إن زلت زل، وهمة إن ملت فإن النصر منه مل،
وتلك القدم العادلة، وتلك الهمة الهمة المسايفة السيفية، فالله الله ثبتوا
ذلك الفؤاد، ودمثوا ذلك المهاد، واسهروا في الله فليست بليلة رقاد،
ولا تنظروا في حديث زيد ولا عمرو، ولا أن فلانا نفع ولا ضرر، ولا أن من
الجماعة من جاء ولا ان فيهم من مر، انظروا إلى انكم الاسلام كله قد برز
إلى الشرك كله، وأنكم ظل الله فان صححتم تلك النسبة فإن الله
لاناسخ لظله واصبروا إن الله مع الصابرين، ولا تمهنا وإن ذهب الناصر
فإن الله خير الناصرين، فما هي إلا غمرة وتنجلي، وهيعة وتنقضي، وليلة
وتصبح، وتجارة وتربح» .

ومن كتاب له آخر إلى الملك العادل: «أدام الله ذلك الاسم تاجا
على مفارق المنابر والطروس، وحياة للدنيا وما فيها من الاجساد
والنفوس، وعرف المملوك ما عرفه من الأمر الذي اقتضته المشاهدة،
وحرست به العاقبة في بيروت، ولا مزيد على تشبيه الحال بقوله:
ألم تران المرء تـذوي يمينه
فيقطعها عمدا يسلم سائرته

ولو كان فيها تدبير لكان مولانا قد سبق إليه، ومن قلم من الاصبع
ظفرا، فقد جلب إلى الجسد بفعله نفعاً، ودفع عنه ضراً:
وتجسم المكروه ليس بضائر
ماخلته سبيل إلى الحمود

وآخر كل شقوه أول كل غزوه، فلا يسأم مولانا نية الرباط وفعلها،
وتجشم الكلف فهو إذا صرف وجهه إلى واحد، وهو وجه الله صرف الله
إليه الوجوه كلها (والذين جاهدوا قينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع
المحسنين) (١٤٢)

ومن كتاب آخر له: «هذه الأوقات التي أنتم فيها عرائس

الأعمار، وهذه النفقات التي تجري على أيديكم مهور الحور في دار القرار، وما أسعد من أودع يد الله ما في يديه، فتلك نعم الله عليه، وتوفيقه الذي ماكل من طلبه وصل إليه، وسواد العجاج في هذه المواقف بياض ماسودته الذنوب من الصحائف، فما أسعد تلك الوقعات، وما أعود بالطمأنينة تلك الرجفات».

فصل

وللعلماء الكاتب رحمه الله كتاب آخر سماه «خطفة البارق وعطفة الشارق» ذكر فيه أشياء من حوادث سنة ثلاث وتسعين واشتمل ذلك على فوائد تتعلق برحمته الله في سنة سبع وتسعين وخمسة مائة، واشتمل ذلك على فوائد تتعلق بما تقدم، فأحببت إلحاقها به، من ذلك وفاة سيف الاسلام طغتكين بن أيوب باليمن في شوال سنة ثلاث وتسعين، وتولي ابنه شمس الملوك اسماعيل، هذا والملك العادل بدمشق وقد انتقل الملك الظافر إلى حلب بعد أن أخذ عمه منه بصرى، وعزم على قصد بغداد فصرفه أخوه الظاهر عن ذلك، وذهب الأمير أبوالهيجاء السمين إلى بغداد بأصحابه فأكرم، ثم سير في جيش إلى همدان، ثم بعد رجوعه مات بدقوقا.

وانقضت مدة هدنة الفرنج التي عقدوها مع الملك الناصر رحمه الله، فخرجوا والتقوا مع الملك العادل برأس الماء بمرج عكا، فكسرهم وفتح يافا عنوة، وكانوا كاتبوا ملك الألمان، وكان قد ملك صقلية، فأنهاؤا إليه تلك البلية، وقالوا إن عظام أبيه إلى الآن في صور في تابوت مكلل بالديباج، وكأنه في الأسر، منتظر الافراج، فإنه لا يقبر إلا بالبيت المقدس إذا استخلص، والآن ما كان غلاما منه استرخص، فان المسلمين قد اشتغل بعضهم ببعض، وهوا عن كل سنة وفرض، فتدافعت إلى عكا سفنهم، وتدفتت مزهم، وامتألت بهم في الساحل مدنهم، وقصدوا بيروت وبها الامير عز الدين سامة، فلما سمع بوصولهم إلى صيدا خرج بجماعته منها وسار بأهله ومال عن وعمر الأمر إلى سهل، ودخلها الفرنج بعد يوم من غير مطاولة سوم، ولا مماطلة روم، وكثر فيه الحديث، وذكر الطيب والحديث، فمن قائل تجبن ومن قبل أن ينكب تنكب، ومن قائل رجاله هابوا فغابوا، ولو أنه دعاهم ما أجابوا، واتسع القول، ووقع الهول، حتى نظم بعضهم والفرنج على تبين:

- ٨٩٣٤ -

سلم الحصن ما عليك ملامه
مايلام الذي يروم السلامه
فعطاء الحصون من غير حرب
سنه سنه ببيروت سامه

وتصرفت الفرنج في بيروت وأعمالها الساحلية، وبقي لسامة الولاية
الجبليّة، ثم توجه إلى مصر.

ودخلت سنة أربع وتسعين

فنزّل الفرنج سادس عشر المحرم على تبنين، وأرسل العادل القاضي محيي الدين محمد بن علي القرشي إلى الملك العزيز بمصر فخرج بجيوشه، ووصل في الثالث والعشرين من ربيع الأول، فجفلت الفرنج بعد أن كانوا ضايقوا الحصن، ورحلوا وجاءهم الخبر بهلاك ملك الألمان، ثم انتقل عسكر المسلمين إلى جانب الطوره، ومع العزيز أخوته: الظافر والمعز، والمؤيد، وكان الأفضل قد جاء إلى عمه قبلهم، وكان معهم على تبنين المجاهد صاحب حمص، والأعرج صاحب بعلبك، وعز الدين بن المقدم، وبدر الدين دلدرم وغيرهم من الأعيان، ثم رجعوا إلى بلادهم بعد عقد الهدنة، ورجع العزيز إلى مصر بعد أن خلع على ابن عمه الملك المعظم عيسى بن العادل، وخصه بالسنجق واللواء المنشور لطي اللأواء، وعاد المعظم إلى دمشق وقد قرت به العيون، وحسنت فيه الظنون، فكان أعز أولاد العادل عنده، وأعلقهم بقلبه، وأخصهم بحبه، قد ولاه سلطنة دمشق، وأطاب فيها بنشر كرمه النشوق، وأقام العادل حتى استقرت الهدنة، وظهرت في عمارة تبنين المكنه، ثم عاد إلى دمشق وأقام قليلا ثم شرق، ووقع بها من الأمر ما تحرق، ورتق ماتفتق، ورد بلاد أولاد عماد الدين زنكي إليهم لأنه توفي في هذه السنة، واستولى عليها ابن عمهم صاحب الموصل، فأنجدهم عليه السلطان الملك العادل.

وتوفي جماعة من أمراء الموصل منهم الأمير عز الدين جرديك، وكان فارس الاسلام ومقدمه، وشجاعه وهمامه، وما برح من أيام نور الدين إلى أيام صلاح الدين رحمهم الله ليث العرين، أشم العرين، وهو الذي أعان صلاح الدين على القبض على شاور، وولاه صلاح الدين القدس في آخر عهده، فقام بمصالحه من بعده، ثم تسلم منه الملك الأفضل، وسلمه إلى أبي الهيجاء السمين، فلما خرج الأفضل من دمشق وصل إلى الموصل، وانتقل من حوض الكوثر إلى أعذب منهل.

قال: ونزل السلطان العادل على قلعة ماردين في شهر رمضان، وملك
ربضها ومدنها وولاياتها وصاف عليها وشتا، وصبر وصابر ولم يقل كيف
ومتى، وماشك أحد أن ماردين في ملكه مضافة إلى ملكه، وقد هناها
الشعراء منهم ابراهيم بن مروان من أهل رأس عين له من قصيدة:

فإن تـك مصر أم ملكك فـمـارد
إذ أنسب البلدان فحل الممالك
تقاعس عنها سنجر وابن عمه
وقصر عنها عزم زنكي الاتابكي
فإن تك قد شوركت في فتح غيرها
فمالك في أمثالها من مشارك

ودخلت سنة خمس وتسعين

والملك العادل نازل على ماردين، وقد وصل إليه أصحاب الأطراف مساعدين، وقد أصلح بين صاحب الموصل وبني عمه عماد الدين، وردهم إلى سنجار، والخابور ونصيبين، وقد أذعن له الجماعة بالطاعة، ونائبه في تلك البلاد وديار بكر ولده الملك الكامل محمد.

قال: وفيها ليلة الأحد العشرين من المحرم توفي الملك العزيز بداره بالقاهرة، وكان عزم على الصيد في أعمال الفيوم فخيم تلك الليلة عند الاهرام، فقيل انه أصبح وركض خلف صيد فكبا به الفرس مرة بعد أخرى فتمت له سقطه، عمت بها على الزمان سخطه، فتفارق ألمه وأقام يومين أو ثلاثة لا يستطيع له مخلوق إعانة ولا إغاثة، ثم حم حمامه، وأظلمت بفجيئته أيامه، وقبر في داره، لينقل منها إلى دار قراره، ثم حوّل منها في الأيام الأفضلية إلى التربة المقدسة الشافعية، وورد كتاب القاضي الفاضل تعزية به للملك العادل: «أدام الله سلطان مولانا الملك العادل، وبارك في عمره، وأعلى أمره بأمره، وأعز نصر الاسلام بنصره، وفدته الأنفس الكريمة، وأصغر الله العظام بنعمته فيه العظيمة، وأحياه الله حياة طيبة يقف هو فيها والاسلام في مواقف الفتوح الجسيمة، وينقلب عنها بالأمور المسلمة والعواقب السليمة، ولا نقص له رجالا ولا عددا، ولا أعدمه الله ما قدر في الملك العزيز رحمه الله له ذيلا ولا يدا، ولا أسخن له قلبا ولا كبدا، ولا كدر له خاطرا ولا موردا، ولما قدر الله في الملك العزيز رحمة الله عليه، وتحياته مكررة إليه من انقضاء مهله، وحضور أجله، كانت بديهة المصاب عظيمة، وطالعة المكروه أليمة، فرحم الله ذلك الوجه ونصره، ثم السبيل إلى الجنة يسره وإذا محاسن أوجهه بليت

فغفا الثرى عن وجهه الحسن

فاعزز على المملوك وعلى الأولياء، بل على قلب مولانا، لاسلبه الله ثوب العز بسرعة مصرعه، وانقلابه إلى مضجعه، ولباسه ثوب البلا قبل أن يبلى ثوب الشباب، وزفه إلى التراب وسريره محفوف باللذات والأتراب، وكانت مدة المرض بعد العود من الفيوم أسبوعين، وكانت في الساعة السابعة من ليلة الأحد العشرين من المحرم، والمملوك في حال تسطيرها مجموع له بين مرض القلب وجسد، ووجع أطراف وغليل كبد، وقد فجع بهذا المولى والعهد بوالده رحمه الله غير بعيد، والأسى في كل يوم عليه جديد».

ووصل قبل هذا إلى العماد كتاب من الفاضل فيه: «وأنا على ما يعلمه المولى من العزلة إلا أنها بلا سكون، ونحن على انتظار البرق الشامي أن يمطر، وحاشى ذمة الوعد به أن تخفر، واشتغال سيدنا في هذا الوقت بالدرس والتدريس، والتصوير والتكييف، والتصانيف التي تصرف فيها بالبلاغة أحسن التصانيف، نعمة يتعين شكرها على العلماء، ويختص باللذة بها سادتهم من الفقهاء».

قال العماد: ولما توفي الملك العزيز خلف بنين صغار يزيدون على العشرة، وولده الأكبر ناصر الدين محمد قد أنافت سنوه على عشر، وكان إلى أبيه أحب أولاده، يشيم من شيمه مخيلة سداده، وقد اختص لديه، ونص عليه، فاجتمع الامراء الصلاحية وكبيرهم ومقدمهم فخر الدين إياز سر كس ومنهم أسد الدين سراسنقر وزين الدين قراجه، وعقدوا الأمر لولده ناصر الدين، ونعتوه بالملك المنصور، وأخذوا له أيان الجمهور، قال: وكانت الأسدية في الايام العزيزية الناصرية مغمورين، وبالاستيلاء عليهم مقهورين، وكبيرهم سيف الدين يازكوج، وكان عند وفاة العزيز غائبا بأسوان، فلما بلغه ذلك حضر وجمع الأسدية، واجتمعوا هم والصلاحية ظاهر القاهرة، فقال لهم: نعم ما رأيتموه من حفظ العزيز في ولده، لكنه صغير السن لا يحتمل ثقل هذا الفن، ولا بدّ من

كبير من أهل البيت يريه ويدبر الدواوين، ويرتب القوانين، وماها هنا إلا الملك العادل، وهو الآن ببلاد الشرق مشغول، وماها هنا من هو أقرب منه، وهو الملك الأفضل، فقال الأسديّة: هذا هو الرأي الراجح، ولم يسع الصلاحية مخالفته، فانفقوا على استدعاء الأفضل من صرخد، فخرج منها ليلة الأربعاء التاسع والعشرين من صفر، وسلك البرية، فوصل إلى القدس يوم الخميس، وخرج إليه عسكره، وساروا معه إلى بيت جبريل، ثم أغذ السير فلما قرب منهم في تاسع ربيع الأول تلقوه، وإلى أعلى مراقي العلاء رقه، وسروا بقدمه، وجروا لمرسومه.

قال: وكان الناصرية كتبوا إلى رفقاتهم بالشام إنا أحوجنا إلى الوفاق، وتأكيّد الميثاق، وقد كتب إلى نور الدين بالحضور، وضبط الأمور، وهو عندكم في صرخد، وإن توصل إلينا انتظم أمره، وتمهد، فاجتهدوا في حصره وهو في حصنه، ولا تسمعوا بفك رهنه، ووصل إلى دمشق بعض الكتب يوم الاثنين السابع والعشرين من صفر فخرج عسكرها إلى صرخد فوصلوا إلى بصرى يوم الأربعاء، فقيل لهم: إن الأفضل أدلج ليلاً، واستصحب نجبا وخيلاً فرجعوا إلى دمشق، وقيل لما عبر الأفضل بالبيت المقدس وجد في طريقه نجاباً مسرعاً فاستحضره، واستكشف ورده وصدّره، فقال أنا نجاب فخرالدين أياز سرکس، ومعى كتبه إلى من يأنس به ويجه، فتسلم منه الكتب، وعاد النجاب في خدمته، فلما وصل إلى القاهرة احتفل سرکس له وأضاف وقدم وغرم أموالاً ثم أبصر نجابه، واقفاً ببابه، فأخبره الخبر فاستشعر من ذلك وتضور، فمضى وتبعه عسكره وزين الدين قراجه فوصلا إلى القدس وسكنا به وعرف الناصرية جلية الحال، فأخذوا في الانتقال، وتوهم الأفضل من الباقيين فقبضهم وحوى جوهرهم وعرضهم، فتفرقت الكلمة المجتمعة، وتوقفت الهمم المسرعة، وأمر الأفضل بالخطبة لابن العزيز على جميع المنابر، ثم الدعاء له في الآخر، ونقشت السكة أيضاً باسم الولد في البلد وغير البلد.

قال: ولما استقر الأفضل بمصر حملوه على قصد دمشق، وحصرها، وقالوا له: اطلب بلدك الذي منه أخرجت، وعن المقام فيه أزعجت، ومالك في مصر ما يكفيك، ودمشق لك بوصية أبيك، وجاءته رسل أخيه الظاهر من حلب وهداياها، وقال له: انتهز الفرصة فعمنا عنا مشغول وإلى إن يتم من ماردين مراده، وينضم إلى بياضه سواده نخرج دمشق عن يده، ونعجله اليوم فيها عن غده، وأنا أصل إليك وأقدم عليك بالبنود والجنود والأساور والأسود، فما زالوا به حتى خرج بالعسكر واستتاب سيف الدين يازكوج مكانه .

قال : ووصل إلى الملك العادل الأمير سراسنقر أحد الأمراء الناصرية المفاقرين، فاستحثه على مفارقة ماردين، وتواصل من الناصرية جماعة بعده، وعندهم من الإستحثاث ما عنده، فحركه القول وتجرد عن العسكر واستصحب معه الأميرين: عز الدين بن المقدم وبدر الدين دلدردم، وسرى ليلا لخمسة بقين من رجب، وأوصى ولده الكامل أن يسير في مضايقة حصن ماردين بسيرته، ويقتدي بعزمته، ووصل إلى دمشق يوم الإثنين حادي عشر شعبان، وأخذ في تحصين البلد.

ووصلت العساكر المصرية يوم الخميس وأحاطت بدمشق، ودخلها جماعة منهم من باب السلامة بلغوا إلى السوق الكبير، وأعلنوا الفتح بالتكبير، ولم يتبعهم أحد على هذا التدبير، فخرجوا من باب الفراديس وكروا على أعقابهم لمن وقف لهم من الكراديس، وأما الأفضل فإنه وصل إلى الميدان الأخضر، وضرب فيه دهليز سراقه، وأقدم برواعده وبوارقه، فأشار عليه أمراؤه بالتأخر عن تلك المنزلة، وكانت منهم زله، فنزلوا عند ميدان الحصان ثم تأخروا إلى مسجد القدم، وامتأ ذلك الفضا بمضارب الخيم، ففترت الصدمة الأولى، وقصرت الصدعة الطويلة، وخمد الجمر فصار رمادا، واستحالت تلك الأمواج المتلاطمة ثادا، ولزموا منازلهم أكثر من ستة أشهر هناك، وتمت فوارط عدمت الاستدراك، وامتدت

خيامهم من أقصى داريا إلى الغوطة، وظنوا أنهم آخذون بمخنق دمشق المضغوطة، وكاتب الملك العادل جماعة من أمراء العسكر المصري ففارقوه ودخلوا دمشق، فأكرمهم واحترمهم منهم طغرل المهراني، وإياز البانياسي، وابن كهدان، ومثقال الخادم، وابن أخت السلطان ابن سعد الدين كمشبه، وكثر الواصلون القاطعون لمن وراءهم، وأحسن العادل جزاءهم، فتكاثرت الأطماع وتتابعت الرؤوس والاتباع، ووصل الملك الظاهر، ومعه أخواه الظافر، والمعز، وجاءهم الملك المجاهد صاحب حمص، وعسكر حماه دون سلطانها، وحسام الدين بشارة صاحب بانياس، وهو شيخ الدولة وكبيرها، وأمينها وأميرها، وفي حمايته حصنا تبين وهونين ومايزال أسرى من كفراء الفرنج بدين الله عنده مرهونين، فرغبتهم في السلامة والسلم، والاحتمال والحلم، وأشار على كل من الجانين بتجنب المجانبية، والتقرب بالمقاربة والمراقبة، وجاءهم أيضا سعد الدين مسعود صاحب صفد، وأخوه نور الدين مودود.

قال: ولما جنبوا عن مضايقة الحصار واصلوا قطع الأشجار، وكسر الأنهار، ومنع كل ما يدخل البلد من نعمة ونعم، وغنيمة وغنم، حتى ردوا القوافل، وصدوا الفروض والنوافل.

قال: وكان الناصرية المقيمون بالقدس قد استولوا عليه، ونظفوا بمن ارتابوا به حواليه، وأخرجوا منه المغاربة، ورجاله وأجناده الراتبه، ومعهم الأمير فارس الدين ميمون صاحب نابلس، وعز الدين سامة صاحب كوكب وبيسان، ثم وصل الخبر أن سر كس ومن معه واصلون إلى دمشق، فتجرد من المحاصرين عسكر إلى طريقهم، وكانوا قد وصلوا إلى طبرية، وعبروا منها إلى البقاع وتمكنوا خلال تلك الضياع، وسيروا إلى بعلبك ما صاحبهم من الأثقال والأحمال، وكان صاحبها الامجد في جانب الملك العادل، وتجردوا خيلا، وقطعوها ليلا، وتوقلوا الجبال حتى أشرفوا على دمشق من عقبة دمر، وقد فاتوا العسكر، فتقوى عسكر البلد فصاروا

ييكررون ويركبون، ويقربون من العسكر المصري ولا يرقبون، وحفر المحاصرون حولهم خندقاً عميقاً فصار لهم به عن الحصار شغل شاغل.

قال: وعلى الجملة فما ظهر منهم صنع إلا في قطع الماء ومنع الميرة، والمضايقة الكثيرة، واحراق البساتين، وتخريب الطواحين، حتى إذا انحسرت المواد، وفنيت في البلد الأزواد واضطروا إلى التسليم، واضطربوا على التأخير والتقديم، فتسلط الرعية على الملك العادل وحملوه على التسليم والابستلام، فتباينت آراء الملوك المحاصرين، بما دبره العادل سيف الدين، ولا بد للكبار من الاحتيال، إذا صمم الصغار على الاغتيال، وليس في ذلك بدعة، فإن الحرب خدعة، فنفذ الى الظاهر في الباطن، وقال له: أنت السلطان وحكمك على جميع الأماكن والمواطن، وأنا أسلم إليك دمشق على أنها تكون لك لا لغيرك، فقال الظاهر لأخيه الافضل: قلدي في الانعام بدمشق منة المتفضل، فقال له هذه لا تخلو من أقسام جالبات لأقسام، أجلك أن تتولاها تولية النائب، وإن أخذتها دوني فمن النوائب، وإن أعطيتني عنها عوضاً مما أعرف لك فيه غرضاً، فما لك ما يصلح أن تقايض به دمشق، وأنت لاتدعي لها العشق، فتغير بهذا رأي الظاهر، والله المطلع على الضمائر، وقيل أرسل العادل وقال: أسلم اليكم دمشق بعد سبعة أشهر، وتربص وتصبر، فخذوا يميني، وكلوني إلى ديني، وظن أنهم لا يوافقون وفي الحصر يضايقون، فلما أجابوه إلى هذا الملتمس، وقعقعوا في الاستضاءة بهذا القبس، عرف انهم نادمون فيما عليه من الحصر قادمون، فعاد عن هذا البذل، وردّهم إلى سنن العدل، وقيل: كان يكتب إلى الأفضل إن الأمر انفصل مع الظاهر، وإنه يعاملك معاملة المسر لا المجاهر، فخذ لنفسك وأبدل معي وحشتك بأنسك، ويكتب أيضاً إلى الظاهر إن الأفضل قد صالحني، وعلى الرضى صافحني، وإنك تحصل على المضاغنة، وستفضي بك المباينة إلى المغابنه، وقيل إنه كان يكتب في كل يوم أجوبة كتب قوم لم يكتبوه، ويجيبهم عما فيه لم يخاطبوه، وخبرت تلك الملطفات في عجين، لتفرّق

على من يقصد العسكر من المساكين، فإذا فتشوا عشر على تلك
الملطفات، فنعت من كتب إليه ، ولاعلم له، بالآفات، وعدّوا من
المخامرين، فصار أكثر العسكر من المتهمين.

ثم دخلت سنة ست وتسعين

وهم على ذلك والشتاء قد هجم، وكل بأمره مهتم، ودهمهم أيضا خبر وصول الملك الكامل من الشرق، وخرج من دمشق جماعة يظهرهم أنهم من الناصحين، وترددوا إليهم ومنهم غادين ورائحين، وأبرقوا وأرعدوا وقالوا: غدا يكون قدوم الملك الكامل في الجحفل الحافل، ومعه من المال الصامت إلى أبيه العادل، فيستظهر بولده والمال والرجال، فلا يقعد عن النهوض إلى القتال، والصواب أن نتأخر قليلا، فرحلوا إلى سفح جبل العقبة، وبقيت أسواقهم مملوءة، وباتوا تلك الليلة وهم لكل ما يحتاج إليه عادمون، وعلى ما فرط منهم نادمون، وفقدوا حتى الماء للشرب، وكانت تلك الحالة كسرة قبل الحرب فاضطربوا المحل المحيل، واضطربوا إلى راحة الرحيل.

ووصل الكامل تاسع عشر صفر، وقد جمع التركمان، واستصحب جند الرها وحران، ونزل في جوسق أبيه، فاستبشر السلطان برحيلهم وقدوم ابنه، وقضت خشية الله بأمنه، وأقام الكامل حتى توجه أبوه إلى مصر، فخرج معه أياما ثم عاد ولم يؤثر مقاما، وانتقل إلى حران والرها واستقام به أمرها، وذلك حادي عشر ربيع الأول، وأما المحاصرون فإنهم انتقلوا من الكسوة إلى مرج الصفر، وسير الملك الظاهر والمجاهد بعض الأثقال إلى بانياس، وأصحابا بقية الأحمال الملك الأفضل إلى مصر، وودّعاه وكلاهما سار جريدة إلى مقره، واستمر بعد ذلك على أمرار أمره، كلما رحل القوم عن منزل أحرقوا ما لم يظفروا له بمحمل، وانتقلوا من مرج الصفر ولم يلووا على أحد، ولم يعرجوا إلى بلد، وأخذوا في السير والسرى، وذهبت أسادهم تروم معاودة السرى، وتبعهم الصلاحية ينزلون بعدهم في منازلهم، ويخلفونهم في منازلهم، وكان القوم ظنوا أنهم يقدرّون بمرج الصفر على الإقامة، فلقوا من البرد ما حضهم على النجاة والسلامة، وهذا المرج بقرب جبل الثلج في تموز لا يقيم به إلا لابس فروة فكيف في كانون،

وقد عرفوا أنهم الجانون حيث لم يلزموا القانون، وأرسلت الصلاحية إلى الملك العادل يستعجلونه، ويحثونه ولا يهملونه، فخرج يوم الخميس تاسع ربيع الأول، وودّع أعيان البلد وسار وتلا من تقدّمه إلى تل العجول، وأقام حتى اجتمع اتباعه.

وأرسل إلى الأفضل العدل النجيب أبا محمد، وكان صلاح الدين رحمه الله يعتقد في صلاح دينه، ويمكنه من خواص حاجاته، ويرسله في مهام الرسائل، وكان مدلول الرسالة: أرفق في السير، ووافق على الخير، فما عندك اليوم من يصدّقك، وأنا لك كالوالد وأبلغك مقصودك، وأخالفك ولا أخالفك، وأوافقك ولا أفارقك، فأشار على الأفضل جماعته بأن يرد جواب الرسالة: إن مقاربتني لك بمباعدتك للصلاحية منوطة، وموافقتي بمخالفتهم مشروطة، فلما سمع ذلك الصلاحية استشاطوا ونفروا، واستدلوا به على أنهم ظفروا، وجدّ جدّهم، واحتدّ حدّهم، فطووا المراحل إلى السائح، وكان الأفضل على بلييس، وقد تفرّق معظم أصحابه إلى أخبازهم، وجماعة منهم مع العادل في الباطن كاتبوه، وعلى الإبطاء عاتبوه، فسار الجمعان بعضهم إلى بعض، والتقوا فانكسر أصحاب الأفضل وانهمزوا، فدخلوا القاهرة، وأغلقوا الأبواب للمحاصرة وانتهى إلى الأفضل أن جماعة منهم أرسلوا إلى العادل في إصلاح أحوالهم، وانجح آمالهم، فقال سيف الدين يازكوج للأفضل: لكل زمان عمل، ولكل أوان أمل، فاصلح الأمر كيف تهبأ، فلا ملام على اللبيب بأي زي تزيأ، فشرع الأفضل في إصلاح الأمر مع عمه، وراسله على أن يكون بحكمه، ثم سلم الأمر ومر سالماً، وحصل له من التجربة ما عاد به بالعواقب عالماً.

قال: وخيم العادل بالبركة، واستبدّ بملك مصر آمنة من الشركة، ونفذ المقطعين إلى اقطاعهم، ونظر للصلاحية في صلاح ضياعهم، وأرسل إلى الأفضل إن وافقتني على ما أعطيك وقبلت سعديت، فهؤلاء الذين عندك

مامنهم إلا من كتب إليّ وتقرّب، وانتظر يومي هذا وترقب وهذه إضبارة كتبهم فتأملها، وإن لم تسدقني فتسلمها واعلم أنهم غرّوك وضرّوك، وساؤوك بما سرّوك، وقيل: لم يبق من الأمراء من لم يكتب إليه، ولم يخامر إلا أربعة أخلصهم سيف الدين يازكوج، فلما عرف الأفضل صدق عمه سلم المسألة، وسأل المعدله، فقرر للأفضل في ديار بكر: ميافارقين وأعمالها، وجبل جور وحاني وجملين، والمعقل والحصون المحسوبة من ميافارقين، فرضي بها مكرها، وخرج إلى الشام متوجها ليلة السبت سابع عشر ربيع الآخر في الليلة التي دخل العادل في بكرتها القاهرة فاستقر بدار السلطنة، وقدم سيف الدين يازكوج وحكمه، واستبقى رضى الناصرية بابقاء الخطبة لابن العزيز، ولم ينافسهم مع حصول المعنى له في التفصيل والتميز، وأقام وهو كل يوم في ارتفاع وسياده، وقوته في نموّ وزيادة.

قال: ورد القضاء الى القاضي صدر الدين عبد الملك بن درباس الكردي، ولم يزل قاضي القضاة بالديار المصرية، من الأيام الناصرية وكان نائبة القاضي زين الدين على بن يوسف الدمشقي، وتعصب الامراء المتغلبون على الملك العزيز في مراتبه بصرف صدر الدين وتولية نائبه، ولم يزل صدر الدين مصروفا تارة بمحبي الدين بن أبي عصرون، وتارة بزین الدين حتى تعصب العادل له وبعث العزيز على ردّه، فلما انقضت أيام العزيز وجاء الأفضل كان أوّل ما حمل عليه أن صدر الدين يعزل، وتولى زين الدين القضاء، فلما جاءت نوبة العادل في هذه السنة ردّ صدر الدين إلى منصبه، وردّ التدريس بالمدرسة الشافعية في التربة المقدسة، وبالمشهد الشريف الحسيني الذي أجرى عليه حكم المدرسة إلى شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه، وكتب إليه وهو بدمشق فاستدعاه، وقد كان قبل ذلك ولاه في ممالكة الجزرية أمور المناصب الشرعية، والامور الدينية، ومدارس الشافعية، وربط الصوفية، وهو قاضي قضاتها، ووالي هداتها، وهادي ولاتها، وله في مناصبه نواب، وفي مراتبه أصحاب.

قال: ولما دخل العادل القاهرة، استشعر أصحاب الدواوين مهابة الوزير صفي الدين ابن شكرالظاهرة، ونزل في الدار السلطانية في الحجرة الفاضلية، وتصدّر في مكان مكانته وشهر من قلمه غضب شهامته، وسيف صرامته، وقمع المتجبرين، ووضع المتكبرين، وأخذ قوس الوزارة بارئها، وأجرى الله الأمور أحسن مجاريها.

قال: وندب العادل من الأسدية والصلاحية أميرين كبيرين إلى الشام لإصلاح ذات البين بحمص، وحماء وحلب وغيرها، وهما سرا سنقر، وكرجي.

قال: ولما ودّع الأفضل عمه بالبركة سار إلى صرخد، وأقام بها وندب إلى البلاد التي بديار بكر من يتسلمها، ولما انفصل عن مصر وجد المواصلين له لصحبته مفارقين، وكذا الدنيا ماتقبل على أحد ولا تمده بمدد، إلا تواردت على حياضه الجموع، وتزاحم في رياضه الرموع، فاذا صرفت عنه وجوهها صرف أهلها عنه الوجوه، وأحلوا به مكروه المكروه.

قال: وأما الظافر فإن عمه أحسن إليه، ووعدته بعتاء جزيل، ووعدته ببناء جميل، وأقطعه بأعمال دمشق حزرما وضياع السواد، وشق عليه انه لا يجد مايجود به وهو من الاجواد، ووصل إلى دمشق رابع جمادى الآخرة وسكن في جوسق بستانه بالنيرب، وسلك طريقة الاحتراز والاحتراس، واختار البعد عن مقاربة الناس، ولزم السكنينة، ولم يدخل المدينة، وطلب من القاضي بجامع النيرب خطيبا شافعيّاً ليكون بالصلاة فيه عن حضور الجامع بالبلد غنيا، واحتاط غاية الاحتياط، وطوى بساط النشاط.

فصل

قال العماد: واستدعى العادل ابنه الكامل إلى مصر ليستنبيه فيها وكان بحران، وهوفي تلك البلاد نائب السلطان، فسلم تلك الولاية إلى أخيه الفائز، ووصل إلى دمشق سادس عشر شعبان، ونزل بجوستق أبيه في بستانه، ومعه شمس الدين المعروف بقاضي دارا، وهو وزيره، ومستحثه على المكارم ومشيره.

قال: وخدمته بكلمة أولها:
أنتم تجبون بالاعراض تعذيبي
وتقصدون بخلق الصدّتهذيبي
ساروا فيا صحتي من مهجتي ارتحلي
غابوا فيا سستي عن مقلتي غيبي
قد كان يهضمني دهري فأدركني
محمد بن أبي بكر بن أيوب
الكامل المالك الأملاك حيث له
رق الأعاجم منهم والأعاريب
معطر عرفه عرفا ومكرمة
مخمر طينه بالطهر والطيب
لا يدعي جوده البحر عرفا ومكرمة
يلفي تأبيه في الشم السناخيب (١٤٣)
دعتك مصر إلى سلطانها فأجب
دعاءها فهو حق غير مكذوب

قال: وعزمت على صحبته في هذه السفارة إلى مصر، فخرج في الثالث والعشرين من شعبان إلى الكسوة، وخرج سلطان دمشق الملك المعظم ليودّع سلطان مصر أخاه الكامل، وصحبه إلى رأس الماء مع عدّة من الأمراء، ثم ودعه وانصرف وتشوّش مزاج الكامل بعده وانحرف، ووصل

إلى العباسة في الحادي والعشرين من رمضان، والتقاء والده العادل وأنزله بالقصر، ثم ركب إليه بعد يومين وأستصحبه إلى الدار ورتب أحواله على الإيثار، وكان قد عقد له على ابنة عمه الملك الناصر رحمه الله، فأدخله إليها ليني عليها.

قال: وأصبح العادل يوم الإثنين سابع عشر شوال، وركب بالسنجق السلطاني والمركب الخسرواني، والسيوف المسلولة، والعقود المحلولة، وأمر الخطيبين بجامعي مصر والقاهرة بالخطبة له ولولده الكامل من بعده ليس بعد دعاء الخليفة إلا الدعاء لهما، وانقطعت الخطبة لابن العزيز، وكان أحضر جماعة من الفقهاء والقضاة والكبراء والولاة، وقال لهم قول المستفتي المستشين: هل تصح ولاية الصغير؟ فقالوا: هذا مولى عليه فلا يلي، وغيابات الحوادث بنظره لاتنجاب ولا تنجلي، فقال: فهل يجوز للمولى الكبير أن ينوب عنه إلى أن يكبر، ويرتب الأمور بحكم النيابة ويدبر؟ فقالوا: إذا كانت الولاية غير صحيحة فلا تصح النيابة، ومن رآه صواباً أخطأ به الإصابة، لاسيما في السلطنة التي هي خلافة الخليفة، فلا حق فيه إلا للكبير الذي يعين على الحقيقة، وجرى منهم في هذا المعنى الإمعان، فلما عرف الشرع أحضر الأمراء والتمس منهم الطاعة والسمع، وخاطبهم في اليمين له والميثاق، وألزمهم بالسوفاء، والوفاق، فأبوا وخاطبهم باراعهم، وملاً بالتقريع اسماعهم، ثم قال: قد علمتم ما هو الواجب من التظافر على حفظ ثغور الإسلام، وتدير الممالك بمصر والشام، وما هذا أمر يناط بالصبيان، أو يحاط بغير ذي القدرة والسلطان، فأذعنوا وأطاعوا وحصل الإئتلاف، ورفع الخلاف.

قال: ولما أصبحنا يوم السبت شاهدنا الملك الكامل قد ركب مثل والده، معقوداً سنجقه بمعاقده، والمناصل مجذوبة، والصواهل مجنوبة، والأعين ناظرة، والألسن ذاكرة، ومشى في ركابه من إليه تجبب، وإلى السلطان تقرب.

قال: وركب يوم الخميس السابع والعشرين من شوال إلى برج المقسم، والمقسم موضع على شاطئ النيل يزار، وهناك مسجد يتبرك به الأبرار، وهو المكان الذي قسمت فيه الغنيمة عند استيلاء الصحابة رضي الله عنهم على مصر، ولما أمر صلاح الدين رحمه الله بإدارة السور على مصر والقاهرة، وتولاها الأمير قراقوش جعل نهايته التي تلي القاهرة عند المقسم، وبنى فيه برجاً هو مشرف على النيل ذو شرفات ومعقل ذو طبقات، وثيق البناء، رفيع الفناء، وبنى مسجداً جامعاً، واتصلت العمارة منه إلى البلد، متتابعة المدد، وهو متنزه عن الأكدار والأقذار بمنزه، وبالجنات مشبه، وإلى البحر والبر بمناظرة الشبايبك موجه، فاختار الكامل أن يجلس فيه يوماً للتفرج، فجلس في الطبقة العليا، واجتمع الأمراء والأعيان في الطبقة الدنيا، ثم مدّ السباط في الجامع، ثم ذكر العماد أنه مدحه ثم بكلمة أولها:

مغرم القلب مدنف

وجده ليس يوصف

وعدوننا واخلفوا

ووفينا ولم يفوا

قال: وفي الحادي والعشرين من شوال قدم فلك الدين أخو العادل من دمشق.

قلت: هو أخوه لأمه واسمه أبو منصور سليمان بن شروه بن جلدك، وإليه تنسب المدرسة الفلكية بنواحي باب الفراديس بدمشق وبها قبره.

قال العماد: وفي هذا اليوم خطب للعادل وابنه الكامل، والعادل في مهامه يستشير ويستدعيه، والمرء كثير بأخيه، ثم عاد إلى دمشق بعد شهر.

قال: وفي العشرين من الشهر خرج حاج مصر إلى البركة، وأمر

عليهم نصير الدين الخضر بن بهرام، وكان والي المحلة، وهو مستمر الولاية من الأيام الصلاحية، وحج معه من معروف الأجناد وأمرائها عدّة، وكذلك حج في هذه السنة حاج دمشق وصحبهم الأمير عز الدين سامة، وكانت السنة مباركة، والنعم متداركة، والخير عام، والخصب تام.

قال: وانتظرنا زيادة بحر النيل في أوقاتها، فبلغ إلى احدى وعشرين أصبعا من ثلاث عشرة ذراعا، فعاد بذلك كل قلب مرتاعا، ثم أخذ في النقص وهو مرجو الزيادة مأمول الوفاء على العادة، ففقط الناس، ووقع اليأس، واشتدّ المحل، وغلا السعر، ويئس الفلاحون من الفلاح، وأجفلوا من البلاد للانتزاح، وطاروا بأجنحة النجاة في طلب النجاح، وقيل إن هذا النقص لم يعهد من عهد الصحابة، وشرعنا في الاستغفار والانابة، وصام الناس ثلاثة أيام قبل يوم التروية، وكأنها أصابهم مصيبة فهم في التعزية، ثم استسقوا ثلاثة أيام إلى العيد، وأفاض الخطيب في ذكر الوعيد، وغصت بالخلائق الأمكنة، وضجت بالأدعية والضراعات الألسنة.

قال: وفي السنة التي قبلها، وهي سنة خمس وتسعين، استدعي القاضي ضياء الدين أبو الفضائل القاسم بن يحيى بن عبد الله الشهرزوري إلى بغداد، وولي قضاء القضاة، وكان متولي القضاء بالموصل، فخرج في أواخر شعبان، فلما وصل بغداد بجمل وعظم، وكان قد تردّد إلى بغداد دفعات في الأيام الصلاحية بسبب الرسالة، فهو كان المعين لها، كما تقدّم ذكره.